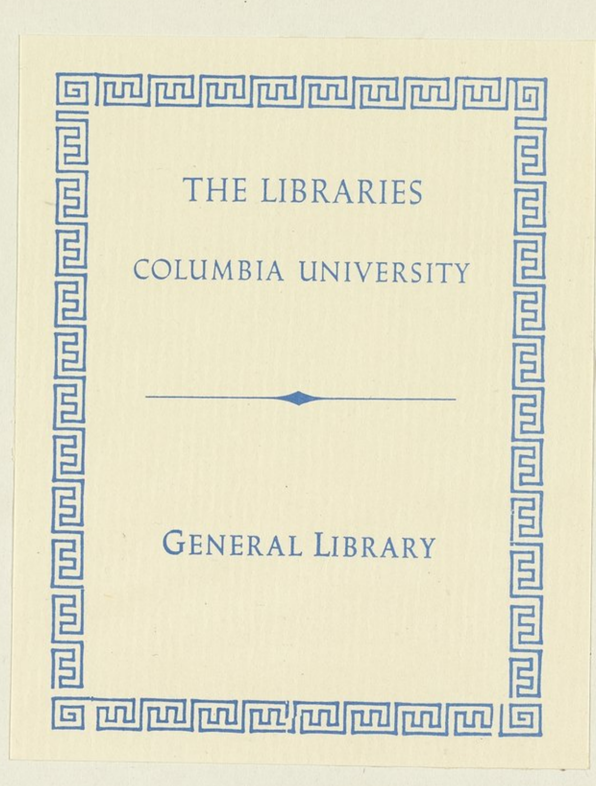
الجامع الاموي

الطنطاوي





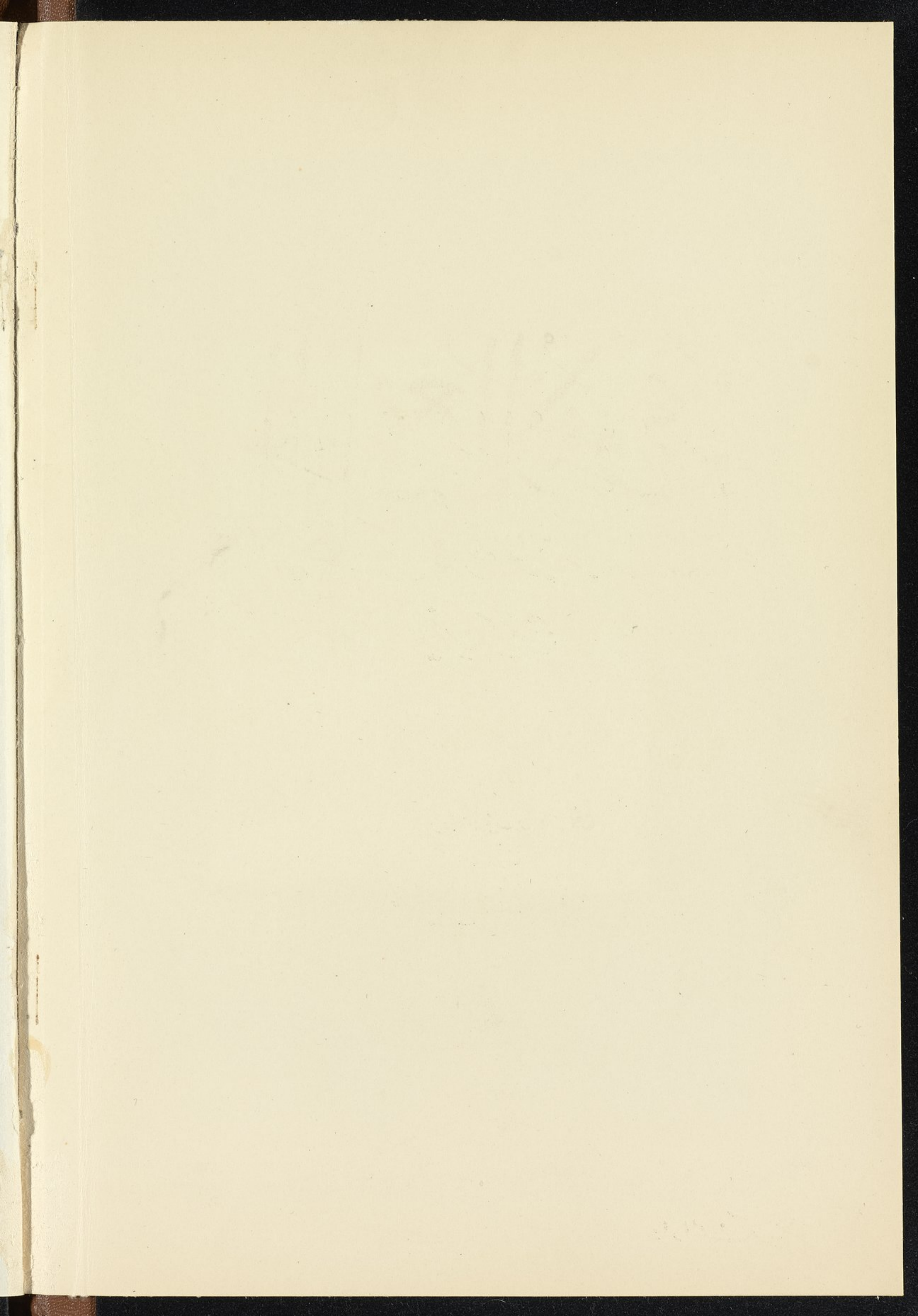
في دمشق

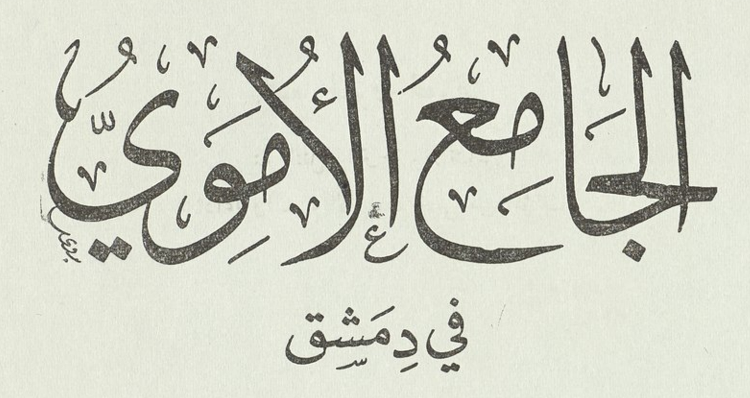
وصف وتأريخ

من تأليف

علي الطنطاوي

دار الفكر بدمشق





الجامع الأموي

في دمشق

وصف وتاريخ

من تأليف

علي الطنطاوي

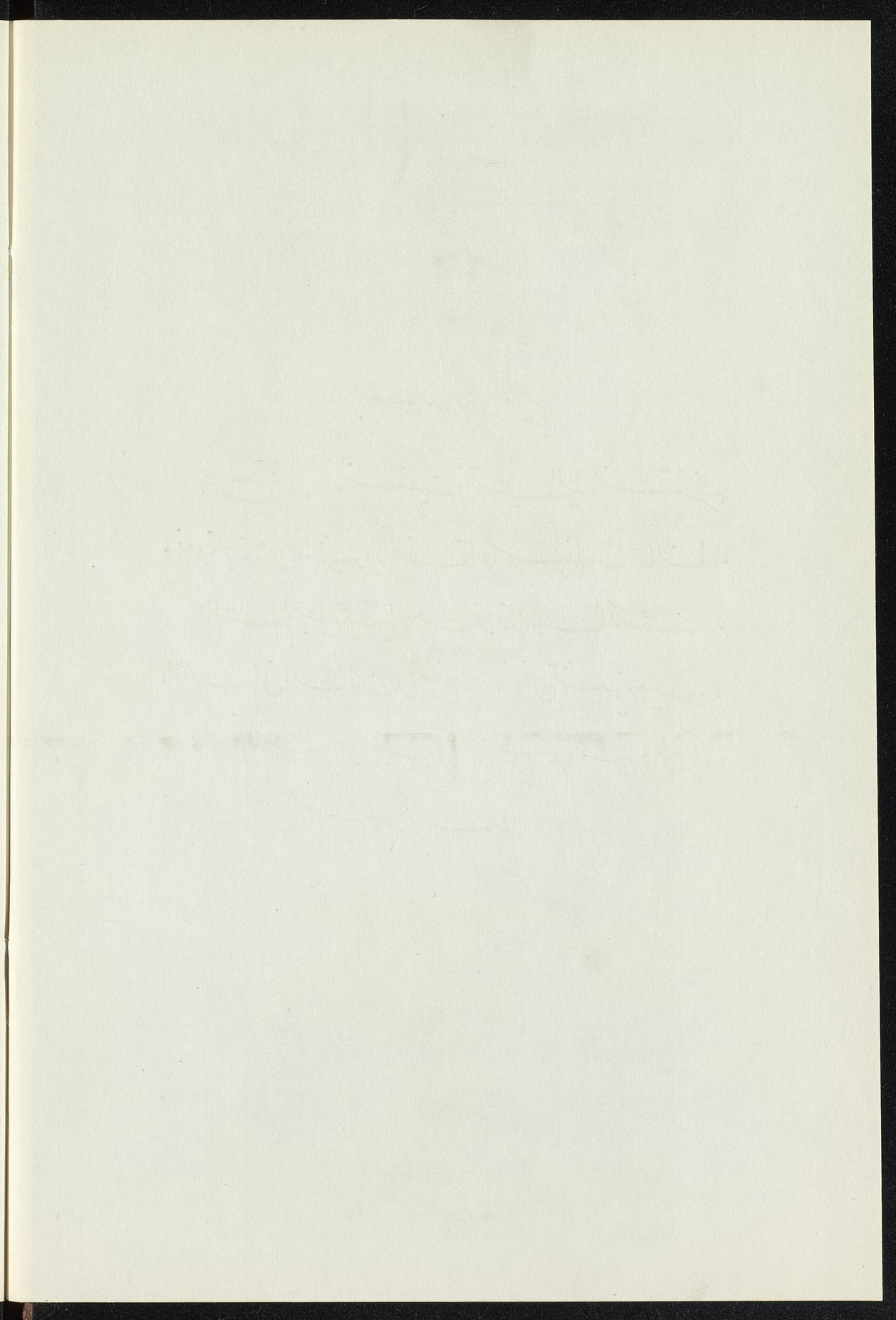
دار الفكر بدمشق

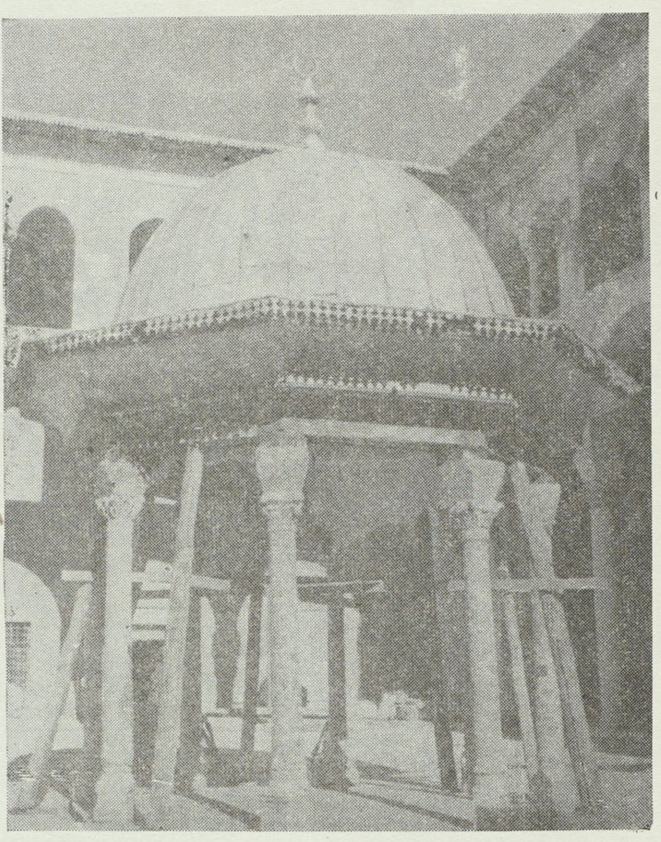
الطبعة الثانية
١٣٨٠ - ١٩٦١

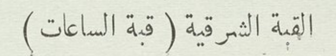
مطابع دار الفكر بدمشق
☎ ١١٠٤١

بسم الله الرحمن الرحيم

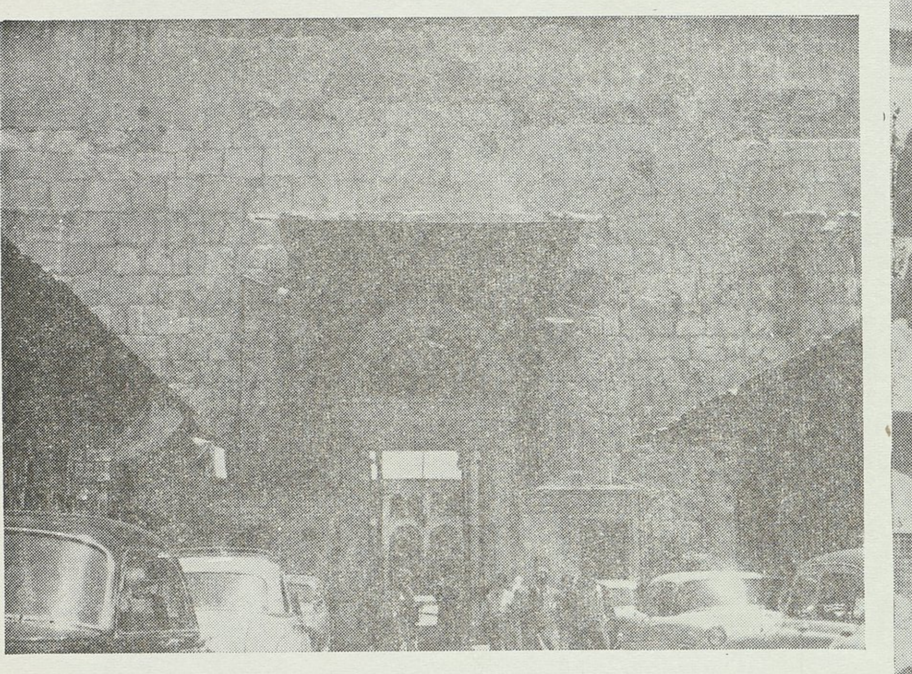
الحمد لله نحمده ونستعينه ونتوب اليه ونستغفره
ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ،
اللهم اجعل عملي هذا خالصاً لك ،
اللهم اني أسألك أن تنفع به ، وأن تثيبني عليه ،
وصل اللهم على سيّدنا محمد معلّم الخير وعلى آله
وصحبه ومن تبعهم باحسان .







القبة الشرقية (قبة الساعات)



الباب الغربي (باب البريد)

CODE NO.	ORDER NO.	ACQUISITIONS DEPARTMENT COLUMBIA UNIVERSITY LIBRARIES 535 West 114th St. New York, N. Y. 10027	L. C. CARD NO.
419	12412 F		

AL-TANTAWI, ALI.
AL-JAMI AL-'UMAWI FI DIMASHQ, DAMASCUS, DAR AL-FIKR, 1961.

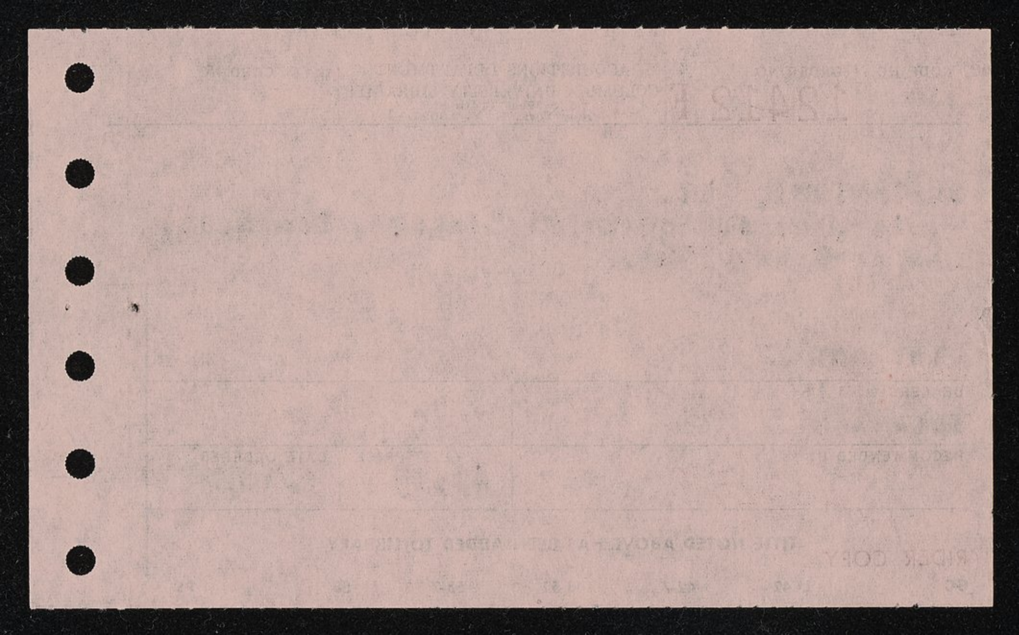
LIST NO. 22

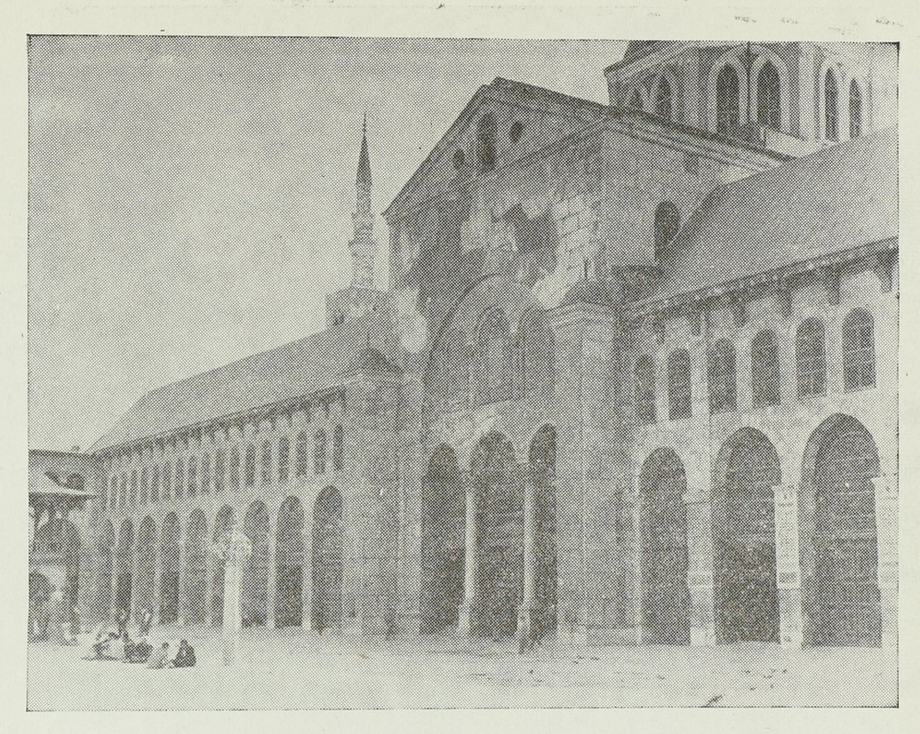
DEALER		
SULAIMAN		
RECOMMENDED BY	LIST PRICE	DATE ORDERED
	$1.15	6/10/74

RIDER COPY

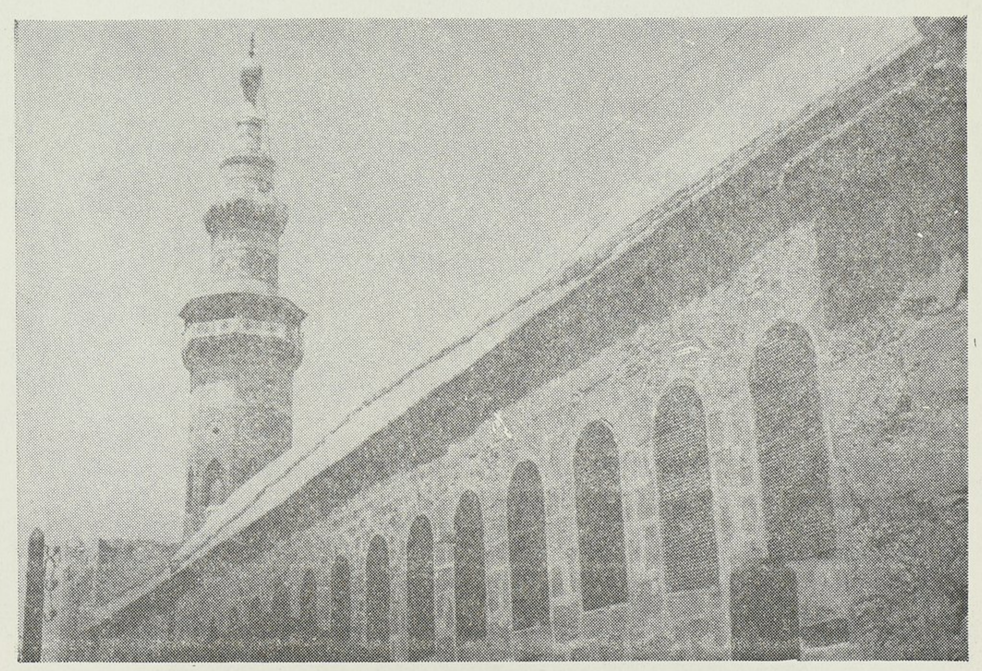
TITLE NOTED ABOVE HAS BEEN ADDED TO LIBRARY

GC LC42 42-7 48-52 53-7 58 PS





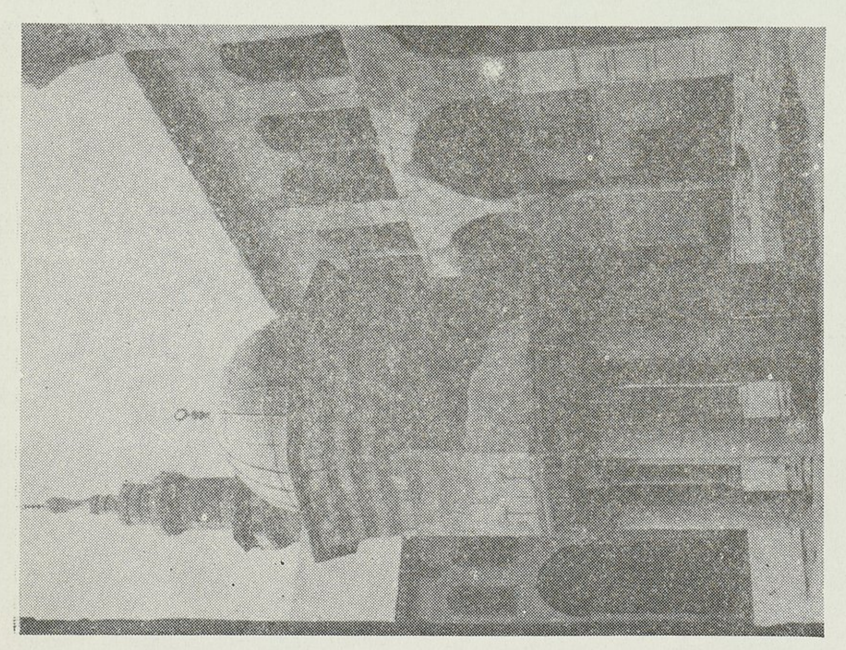
الواجهة الشمالية للحرم كما تبدو من الصحن



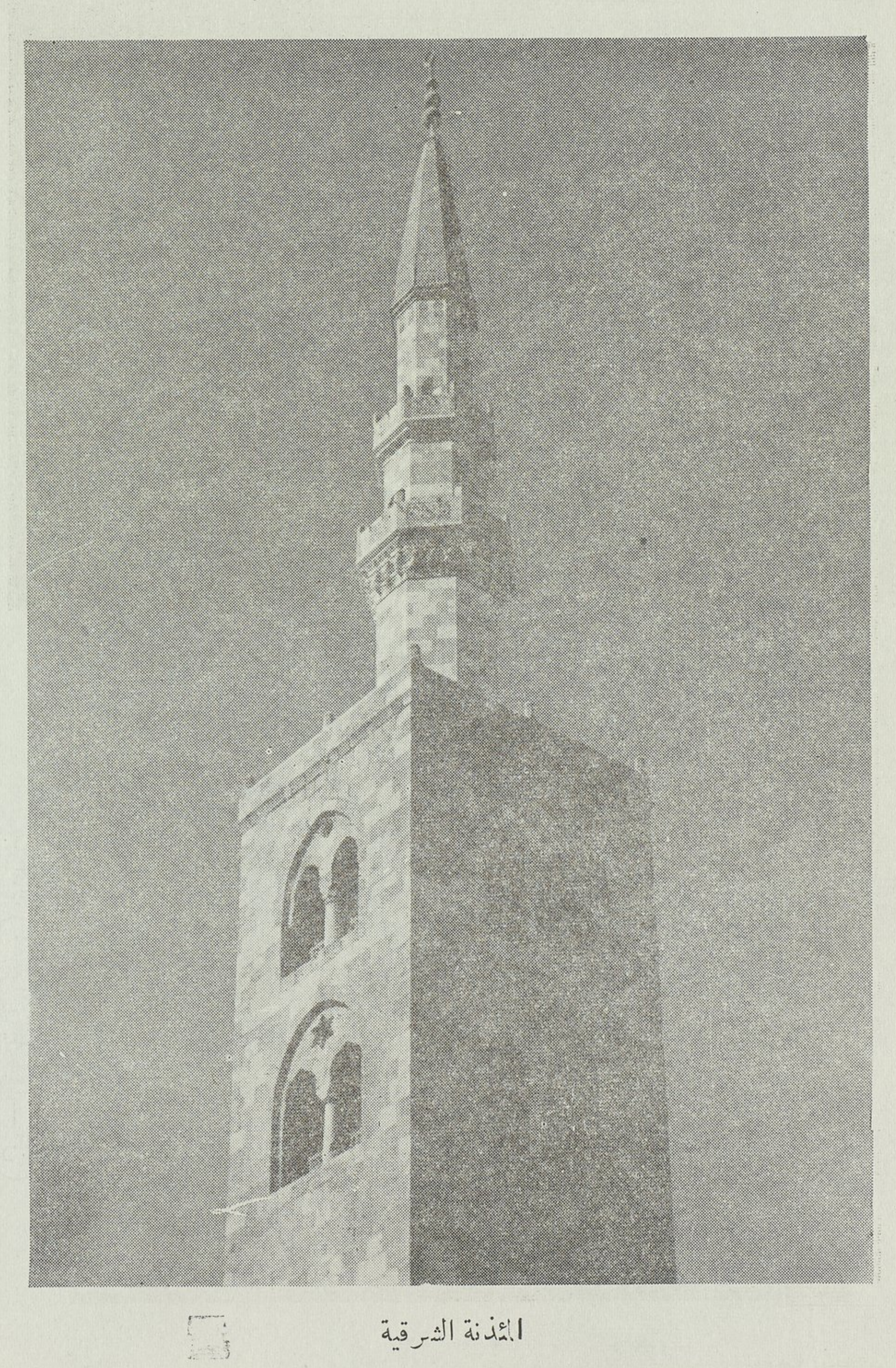
المئذنة الغربية مع قسم من الجدار القبلي



مئذنة العروس (وهي المئذنة الرئيسية) مع الرواق الشمالي ومنظر المدينة من وراء المسجد



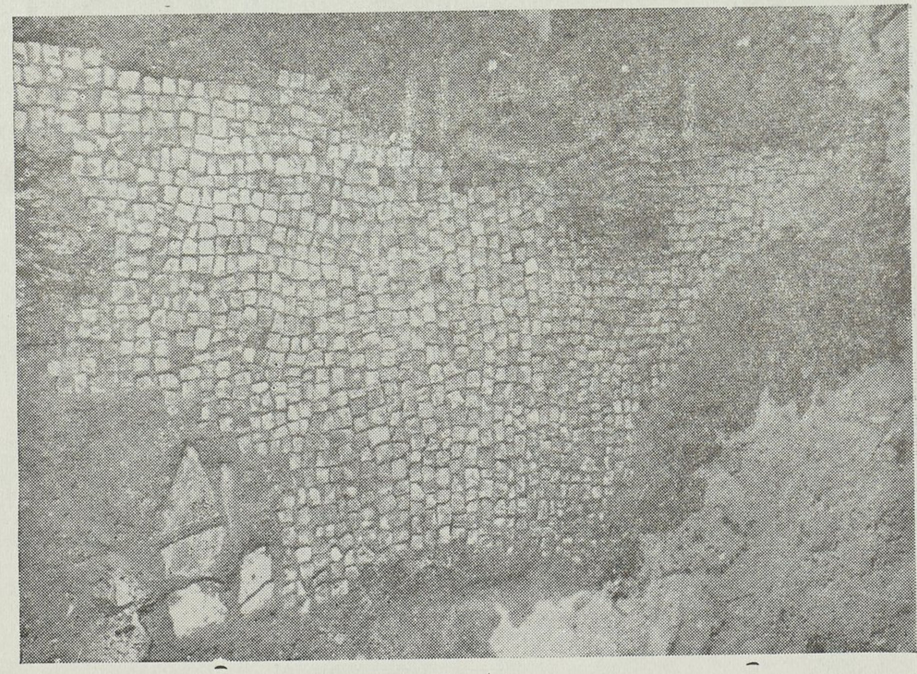
قبة المال (القبة الغربية في الصحن)



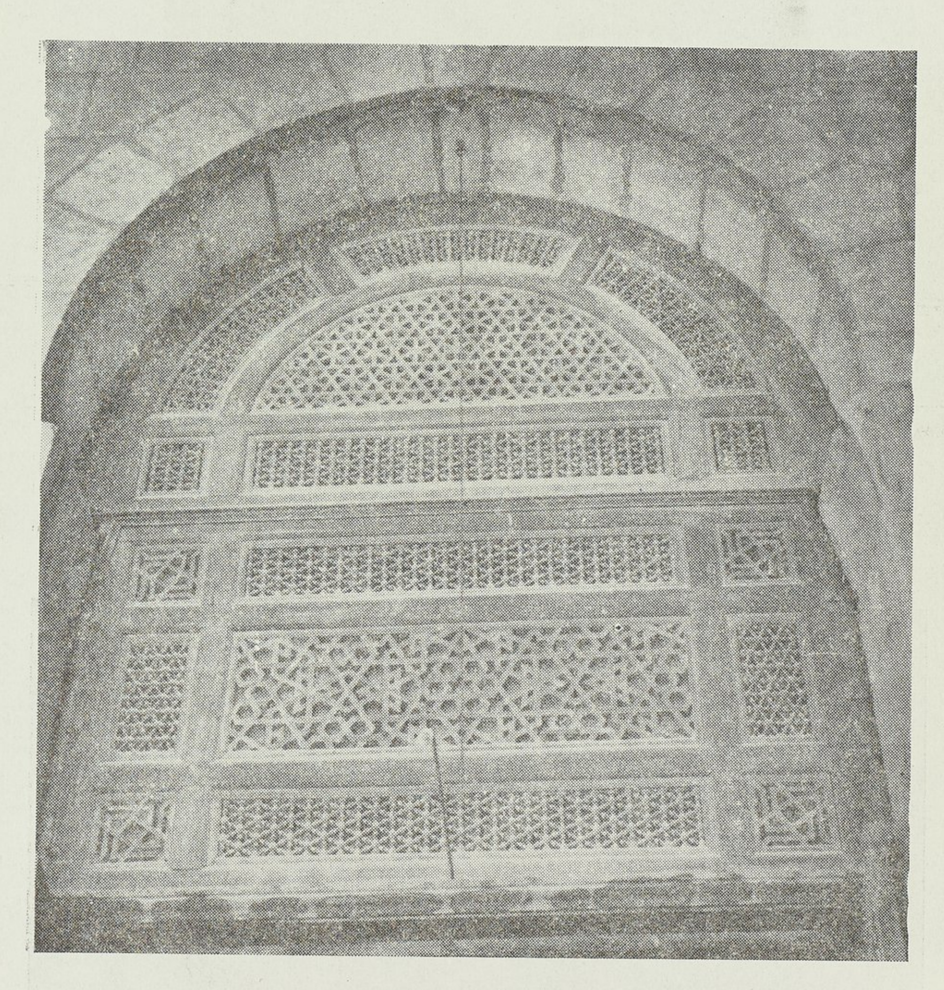
المئذنة الشرقية



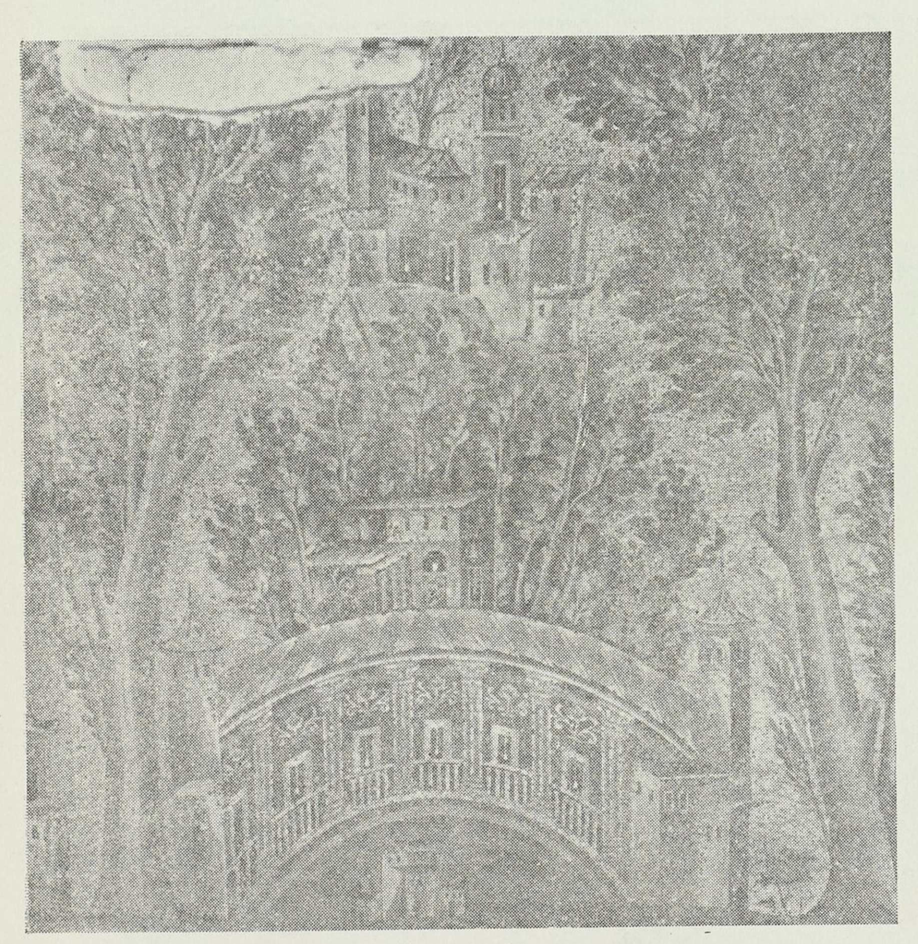
تيجان أعمدة الاموي



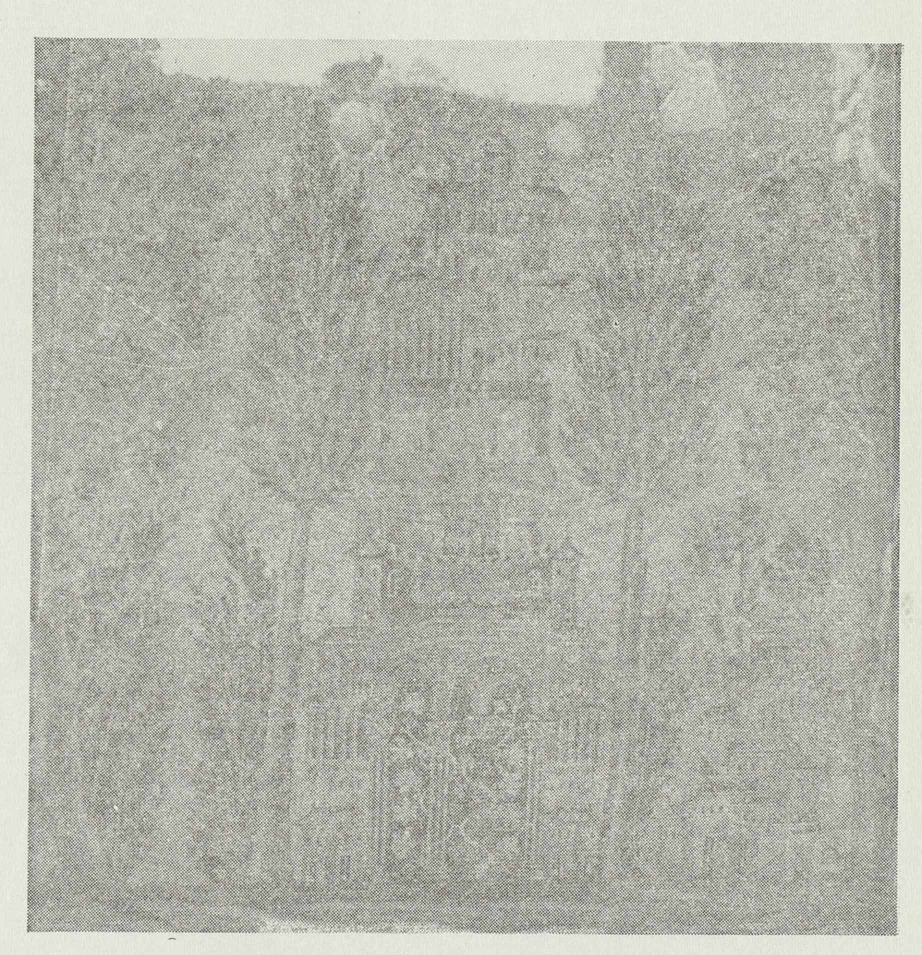
من مناطق الفسيفساء



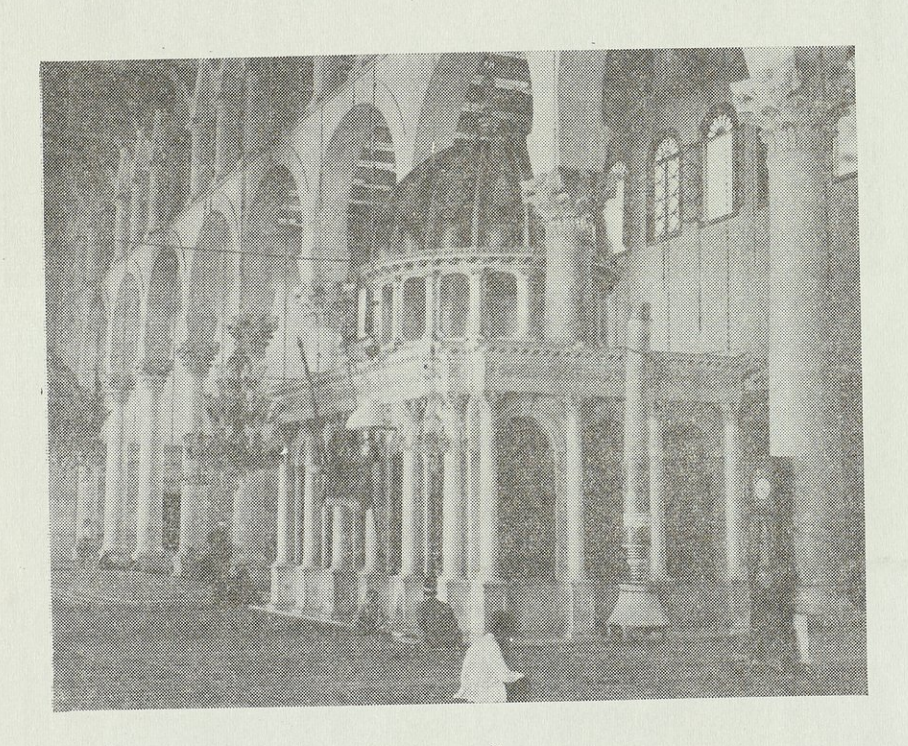
تيجان أبواب الحرم



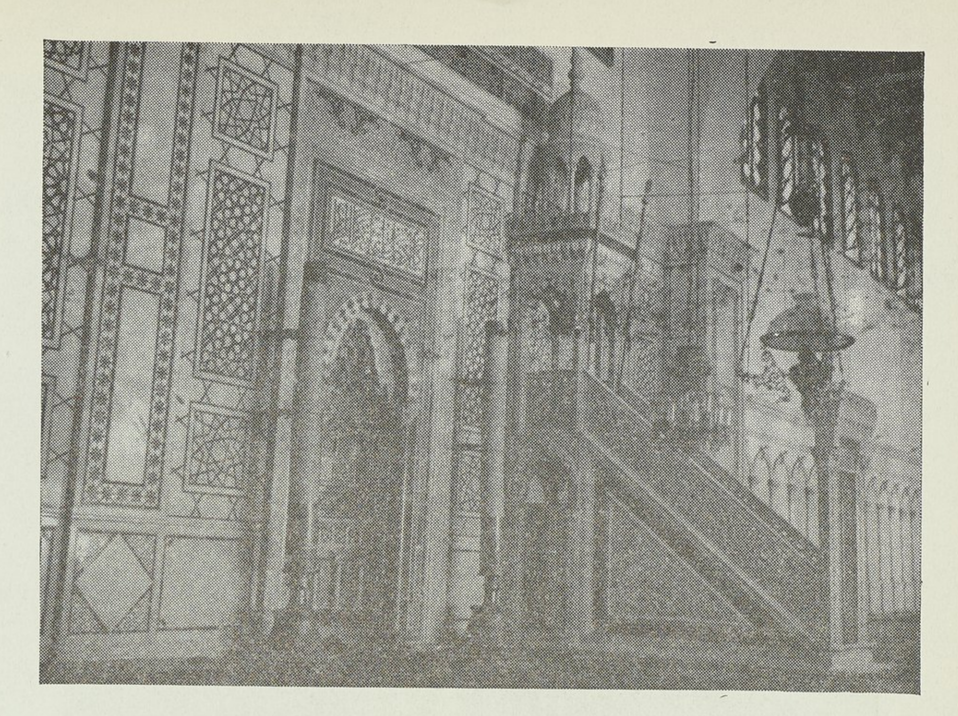
من صور الفسيفساء في الاموي



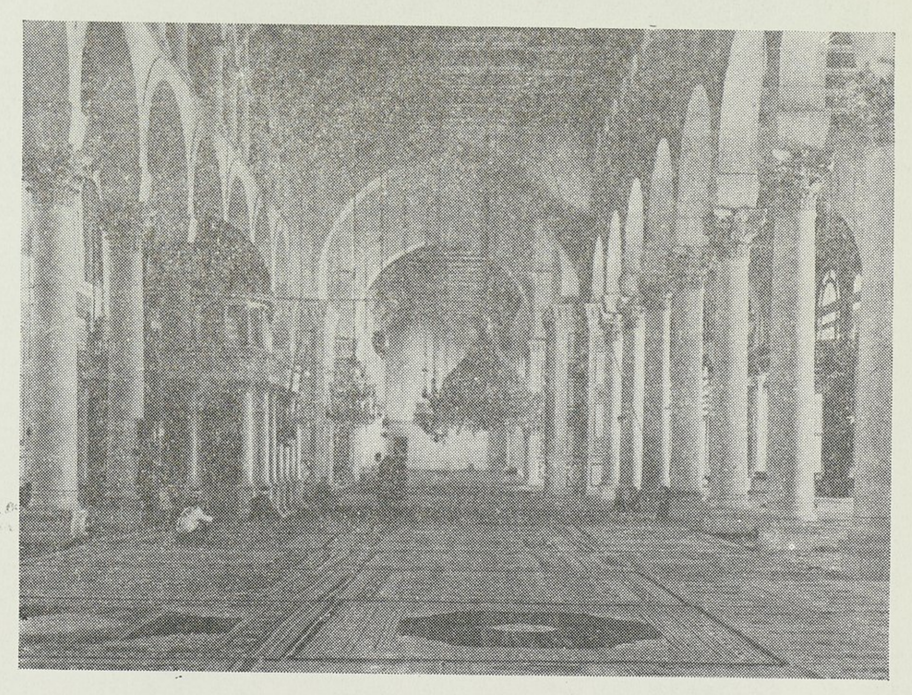
من صور الفسيفساء في الاموي



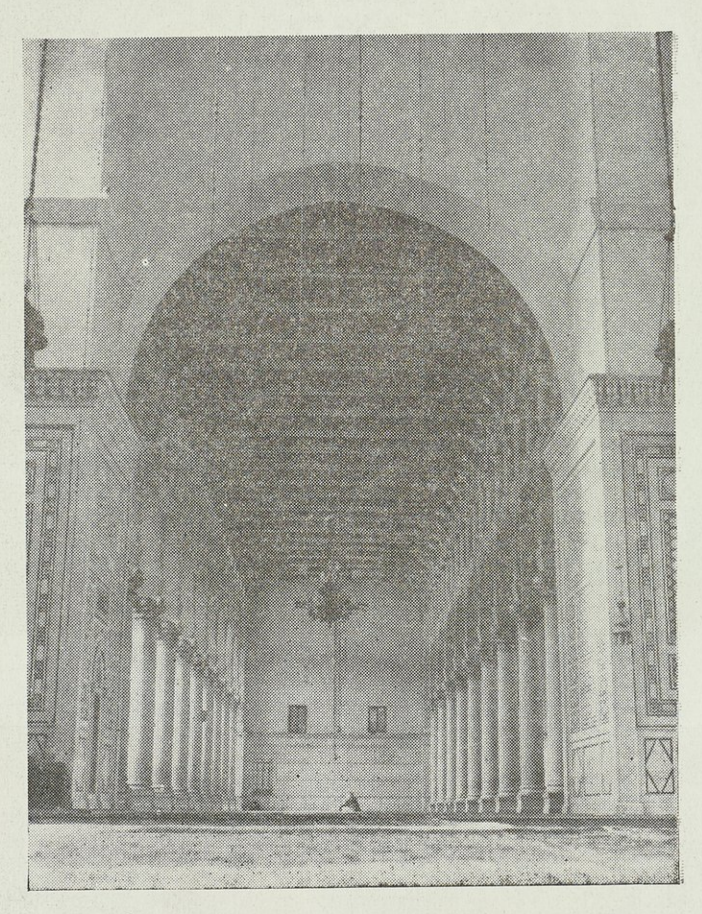
القــــبر



المنبر والمحراب الكبير

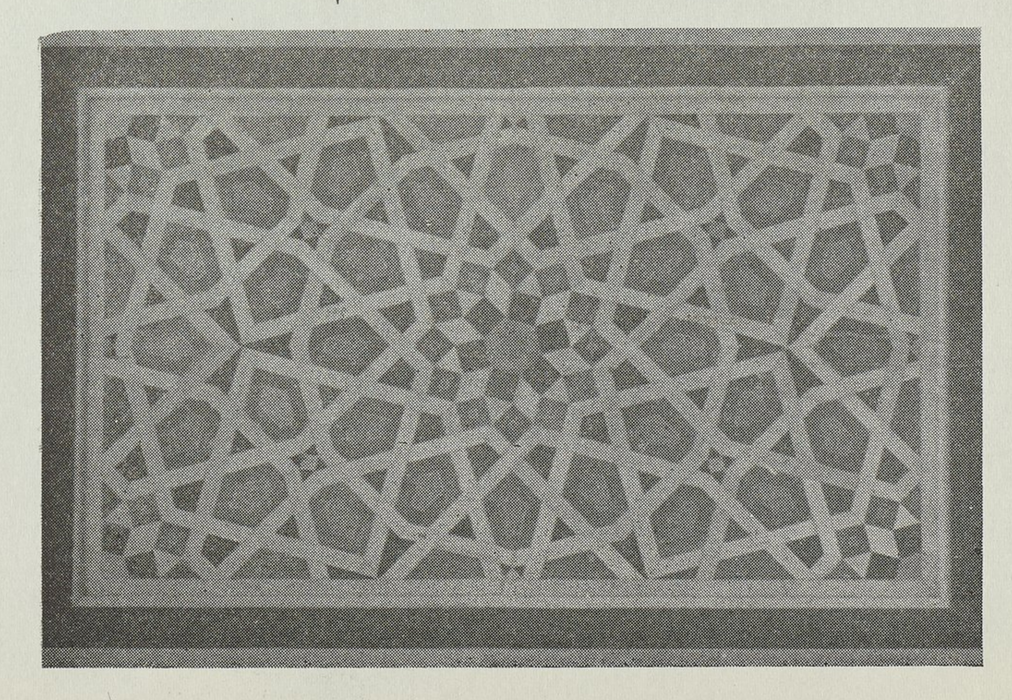


القبر والبلاطة الوسطى في الحرم



النصف الغربي من البلاطة الوسطى
وذلك سدس الحرم

٨ من نقوش السقف ٧



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على محمد بن عبد الله ، وعلى سائر رسل الله وأنبيائه .

اللهم منك العون ، وعليك الاتكال ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

★ ★ ★

وبعد ، فان من دأبي كلما ازدحمت علي المتاعب ، وركبتني الهموم ، وضاق صدري ، وانقبض قلبي ، أن أمشي حتى أجد مسجداً خالياً ، فأدخله فأصلي ركعتين ، وأقعد . أشعر بسكون المسجد من حولي ، وبجلال الحق من فوقي ، حتى أجد الطمأنينة والرضا ، كأني نجوت من البحر الهائج الى الجزيرة الآمنة ، وتركت الصحراء المحرقة الى الواحة الظليلة . وكأن ما كنت فيه من المشاكل ، وما كان في صدري من الهموم ، قد ذهب كله ، لما دخلت حمى الله وصرت في بيته واعتصمت به من الناس وشرورهم ، ومن نفسي وسوئها ، ومن الشيطان ووسوسه .

واذا كان العرف الدولي على أن بيوت سفراء الدول الاجنبية قطع من بلادهم ولو كانت في بلاد الناس ، فان بيوت الله رياض من رياض الجنة ، وان كانت في هذه الدنيا ، فمن دخلها كان ضيف الله ، وكان جاره . فهي أبواب السماء المفتحة دائماً ان سدت في وجه البائسين اليائسين أبواب الارض ، وهي منار الهدى ان ضل بالسالكين الطريق . ان كان في الدنيا الخير والشر ، فهاهنا الخير الذي لاشر معه ، وان كان فيها الحق والباطل ، فهاهنا الحق الذي لا باطل فيه .

من هنا تخرج الكلمة من أفواه الخطبـــاء والمدرسين فتمشي في الفضاء ، من فوق رؤوس الملوك والكبراء ، والاغنياء والاقوياء ، كل يخضع لها ويصغي اليها ، لأنها كلمة الخالق ، وان جاءت على ألسنة ناس من المخلوقين .

هذه قلاع الايمان في وجه الالحاد .

هذه حصون الفضيلة ، أمام الرذائل والشهوات .

والمسجد هو المعبد في الاسلام ، وهو البرلمان ، وهو المدرسة ، وهو النادي ، وهو المحكمة .

هو (المعبد) : يدع المسلمون أحقادهم ومطامعهم وشرورهم وفسادهم على الباب ، ويدخلون اليه بقلوب متفتحة للايمان ، متطلعة الى السماء ، متحلية بالخشوع ، ثم يقومون صفاً واحداً ، يستوي فيه الكبير والصغير ، والامير والحقير ، والغني والفقير ، أقدامهم متراصة ، وأكتافهم متزاحمة وجباههم جميعاً على الارض ، يستوون في شرف العبودية ، وفي شرعـــة العبـــادة ..

وهو (البرلمان) ما دهى المسلمين أمر ، ولا عرض لهم عارض ، الا نودي : (الصلاة جامعة) فاجتمع الشعب في المسجد . في المسجد يكون انتخاب الخليفة ، وفيه تكون البيعة ، وفيه تبحث القوانين ، تستمد من الشرع ثم تعلن فيه على الناس .

وهو (النادي) ، ان قدم أمير بلداً كان أول مايدخله من البـــلد المسجد ، على منبره يعلن سياسته ، ويذيع منهاجه ، وان كانت حرب ، عقدت الرايات في المسجد ، وليس في الاسلام حروب هجومية ، لمجرد

الفتح والاستعمار والكسب ، بل فيه الحرب الدفاعيـــة فقط ، حرب الدفاع عن العقيدة ، أن يمنع أحد مسيرهـا ، وعن أصحابهـا أن يحول أحد بينهم وبين قيامهم بفرض الدعوة اليها . انهم مكلفون بحمل المصباح الذي أضيء من غار حراء ، لينوّروا به الدنيا ، ويبددوا به الظلام عن أهلها ، فاذا انبرى لهم من يحـاول اطفاء المصباح ، ومن يريد منع نور الله أن يصل الى عباده ، حاربوه حتى يفيء ويرجع ، فان فاء ورجع الى الحق كان واحداً منهم ، له مالهم ، وعليه ما عليهم ، وان أبى الا عناداً فحارب فغُلب على أمره ، لم يكرهوه على الاسلام ، ولم يكلفوه شططاً ، ولم يحملوه الا ضريبة محـــدودة ، هي تـكاليف الدفـاع الذي يتولونه هم وحـدهم ، ضريبـة هي أشبه بـ (البـدل العسكري) ، يدفعـــه المغلوبون من أموالهم ، ويدفع المسلمون الغالبون ضريبـــة الجهاد من أرواحهم .

والمسجد هو (المدرسة) ، وفي المساجد وضعت أسس الثقافـــة الاسلامية ، وفيها ارتفعت ذراهـا ، وشيدت صروحهـا ، وكان يدرس في المسجد كل علم ينفع الناس ، من علوم القرآن ، وعلوم السنة ، وعلوم الشريعة ، وعـلوم اللسان ، وعلوم سنن الله في الاكوان . وكل علـم تحتاج اليه الامة الاسلامية يكون تعلمه فرض كفاية في نظر الاسلام ، حتى الكيمياء والفيزياء والرياضيات . ونجد بعد ذلك من تبلغ بـــه الجهالة ، أن يصم بالجمود ديناً يجعل تعلم الكيمياء فرضاً كفروض العبادات .

والمسجد هو (المحـكمة) . وعلى بسط المساجـد وأمام أعمدتهـــا وأساطينها ، أصدرت أعدل الاحكام ، وأجرؤهـا ، وفيها سطرت أروع صفحات القضاء البشري ، ولطالمـا أقام القضاة فيها الجمّال والحمّال مع أمير

المؤمنين[١]، والاجير والفقير مع الامير الكبير[٢]، ثم حكموا له عليه، لا يبالون مع الحق صغيراً ولا كبيراً .

ولقد تشرفت فزرت آلافاً من المساجد، في الداني والقاصي من بلاد الاسلام، عامرها وداثرها، فرأيت المسجد الحرام، ومسجد الرسول ﷺ، والمسجد الأقصى، والأزهر المعمور، ومسجد أبي حنيفة والجيلاني في بغداد، وابن طولون والمتوكل، في القاهرة وسرّ من رأى، وآثار مسجدي الكوفة والبصرة، والمسجدين العظيمين : المسجد الجامع في دهلي، وآثار مسجد قوة الاسلام في دهلي القديمة، ومساجد الملايا وجاوه، فما رأيت فيها كلها بعد المساجد الثلاثة التي ميزها الله، وجعل الصلاة فيها أفضل بدرجات، مسجداً هو أقدم قدما، وأفخم مظهراً، وأجمل عمارة، وأحلى في العين منظراً، من الجامع الاموي في دمشق .

كان مدرسة دمشق، فيه الحلقات يدرس فيها كل علم . وكان النادي يجتمع فيه الناس كلما دهم البلد خطب . وكان الاموي في عهد نشأتنا الاولى لبّ دمشق، فكانت الدار القريبة هي القريبة من الاموي، والبعيدة هي البعيدة عن الاموي، وكانت الارض الغالية هي التي جاورت الاموي، وكان الاموي ملعبنا ونحن أطفال، ثم كانت مدرستنا الثانية ونحن طلاب، ندخله اذا انصرفنا من المدرسة فنصلي فيه، ونقف على حلقاته، وما كان يخلو وقت فيه من حلقتين أو أكثر وكنا نتبوّأ مقاعدنا

---

(١) منها دعوى الجمال على امير المؤمنين المنصور امام قاضي مكة .

(٢) ومنها دعوى المرأة على عيسى بن موسى اكبر امراء البيت العباسي ووالي العراق امام القاضي شريك - انظر الرسالة الثالثة من سلسلة اعلام التاريخ التي تصدرها دار الفكر في دمشق .

في بعضها ، نأخذ الفقه والحديث واللغة والنحو ، وكنا نؤمه في عشايا الصيف مع آبائنا ، نتخذ من صحنه متنزّهاً وأنسا ، وكنا نؤمه في ليالي الشتاء نتخذ من حرمه ملجأ وأمناً . وكان الاموي مثابة الجهاد الوطني على عهد الانتداب ، فيه تلقى الخطب ، وفيه تعد المظاهرات ، ومنه تسري روح النضال في الناس ، فكان للدين والدنيا ، وللعبادة والعلم ، ولكل مافيه رضا الله ونفع الناس ، وكذلك يكون المسجد في الاسلام .

وأكثر ما كثر عليه ترددادي ، واتصل به حبلي ، لما كنت في المدرسة الجقمقية ، ثم لما صرت من بعد في مكتب عنبر ، وأولعت من أيام الجقمقية (سنة ١٩١٩ م) بأن أنقل كل خبر أجده عن الاموي ، واستمر ذلك أكثر من أربعين سنة ، من تلك الايام الى الآن ، فاجتمع لي من الاوراق والجذاذات والمذكرات مايملأ درجاً كبيراً وكنت كلما عزمت على تصفيته ، واخراجه في كتاب ، تعاظمني الامر فتهيّبته ، وقد جمعت كل ماوجدته عنه في ابن عساكر والدارس ومحاسن الشام ، ومسالك الابصار ، والبداية والنهاية ، والروضتين وذيله ، وشذرات الذهب ومعجم البلدان ، والنجوم الزاهرة ، وتاريخ ابن القلانسي ، والسلوك للمقريزي ، وكتب ابن طولون ، وما كتبه القاسمي وبدران . ورأيت بعض الرسائل المخطوطة ، وكتباً أخرى لا أريد الآن احصاءها .

وكنت كلما تقادم العهد ، ازدادت هذه الاوراق كثرة ، وازددت لها تهيباً ، حتى اذا صح مني العزم قليلا ، استخرجت سلسلة الاحاديث التي كنت حدثت بها من اذاعة دمشق عن الاموي من سنين ثم تركتها ، فلما طلبت مني المديرية العامة للاوقاف ، أن أكتب شيئاً عن الاموي ، يكون

كالدليل للسائح ، استخرجت منها هذه الخلاصة التي أقدمها اليوم ، ولم أعزُ كل خبر فيه اعتماداً على أني سأخرج ان شاء الله الكتاب الكبير عن الاموي ، وكل خبر فيه معزوٌ الى مصدره ، ولأني جربت في كتابي عن أبي بكر وعمر أن أذكر كل مصدر ، وأعين الطبعة من الكتاب والجزء والصفحة ، فأخذ اثنان من (أكبر) كتابنا ومؤلفينا مافيها ولم يشيرا اليها ، وادعيا أنهما أخذا من الاصول التي نقلت منها .

وأنا أسأل الله التوفيق ، وان يجعلنا من المخلصين .

علي الطنطاوي
مستشار محكمة النقض في الجمهورية العربية المتحدة

★ ★ ★

حياة الأموي

لكل موجود (ان حققت) حياة : الجبال والانهار ، والمدن والعمارات ، كلها حية تولد وتموت ، وتشب وتهرم ، وتصح وتمرض .

هذا الاموي الذي جئت أعرض عليكم خطوطاً من صورته ، وملامح من تاريخه ، له حياة طويلة ، ولحياته تاريخ طويل .

تاريخ لايدري الا ببعضه التاريخ ، لأن الاموي ولد قبل ان يكتب التـــاريخ .

لا نعرف ولا يعرف أحد من الذي وضع الحجر الاول فيه ، ولا متى شيد ، فكأنه قام ليصل الازل بالابد .

صارع النار والدمار ، وثبت على الادهار والاعصار ، تكسرت على جدرانه موجات القرون كما تتكسر الامواج على صخرة الشاطئ ، ثم ترتد عنه ميتة وهو حي قائم .

ذهبت أمية بمالها وسلطانها ، ولبث وحده يخلد في الدنيا اسم أمية ، فكان أبقى من كل ما نالت أمية من مال ومن سلطان .

كان معبداً من أكثر من ثلاثة آلاف سنة ، تداولته أيدي اليونان والرومان وأقوام كانوا قبلهم ، ثم صار للمسيح ، ثم انتهى لمحمد .

كنيسة صارت الى مسجد ‏ ‏ ‏ هـــدية السيد للسيد[١]

---

(١) البيت لشوقي .

صلى الله على سيدنا المسيح ، وعلى سيدنا محمد خاتم الانبيـــاء الذي نسخت شريعته الشرائع ، وعلى كل نبي أرسله الله بالهدى والتوحيد والدين القيم ، لانفرق بين أحد من رسله ، نؤمن بكل نبي بعثه الله على ما بعث عليه ، وكل كتاب أنزله الله على مانزل عليه ، ونقول كل من عند ربنا ونحن له مسلمون .

* * *

ولد المسجد ليلة الفتح ، حين شرف الله الشام وأراد لها الخـــير ، فاستظلت براية القرآن ، واتبعت داعي الله وسلكت الطريق الموصل (ان شاء الله) الى الجنة ، ثم شب واكتهل ، ونما واكتمل ، على عهد الوليد ، يوم كانت دمشق تمرح في جنة من غرس محمد ، وتنعم هانئة بالامن والرخاء في فَيْء الصرح الذي شاده محمد ، حين كانت الليالي أعراس ، والايام أفراح ، والدنيا ترقص ابتهاجاً وتميس من السرور .

هنالك كان الاموي يتبوأ في دمشق سدة ملك . قد لبس الفسيفساء ، وتحلى بالذهب ، وتسربل بستر الوشي والديباج ، وتاه على كل بنـــاء في الارض .

ثم أراه الزمان من حـلوه ومرّه ، ومن نعيمـه وبؤسه ، مايري كلّ (حي) في الوجود .

ولست أستطيع أن أعرض عليكم تاريخ الاموي ، يوماً بيوم ، فلقـد كانت تتعاوره الايدى دائماً : أيدي المصائب والبغاة ، بالخراب والدمار ، وأيدي المصلحين بالعمارة والاصلاح ، حتى غدا وفي كل شبر منه تاريخ ، وصار كفسيفسائه ، كل قطعة منه من طبيعة ومن لون . ولـكل يوم من حياته الطويلة قصة .

ومن كانت له دار يسكنها هو ، وسكنها أبوه من قبله خمسين سنة ، يتعهدها فيها بالاصلاح وبالتجديد ، لم يستطع أن يحدد تاريخ كل باب فيها وكل جدار ، فكيف بالاموي وهو من ألف وثلاثمئة سنة عرضة للاصلاح والتجديـــد .

بقي الاموي على صفته الاولى (التي ستقرؤونهـا بعد صفحات) أو على قريب منها نحواً من أربعمئة سنة ، أي الى سنة ٤٦١ حين نشب فيه الحريق العظيم ، فنسخ آيات حسنه ، وطمس وجه جماله ، وصيره تلالاً من التراب ، وبقي على ذلك أربع عشرة سنة الى سنة ٤٧٥ حين جدد بأمر ملكشاه السلجوقي .

ثم تتالت عليه الزلازل والحرائق على ماسيأتي تفصيـــله ، ولم يكن عمل البشر في صحن المسجد أقل من عمل الطبيعة[١] فلقد انتابه الاهمال مرة حتى صار كأنه خان أو فندق ، وامتلأ صحنه باللاجئين والمقيمين ، وصار الرجل يجد لنفسه موضعاً فيه يضع فيـــه حاجاته وصندوقه ، ويقيم على نفسه مقصورة أو كوخاً ، ويستقر فيه ، وبلغ مافيه من هذه المقاصير أكثر من ثلاثمئة ، واتخـــذ فيه الامراء حواصل ومستودعات ، وبقي ذلك مدة لا يعرف مقدارها حتى جاء الملك الظاهر ، فـكان من بداية اصلاحاته أن طرد هؤلاء الناس ، ونظفه وغسل رخامه ، وفرشه وأعاده مسجـــداً للعبادة والعلم .

---

(١) الطبيعة (فعيلة) بمعنى مفعولة - والذي طبعهـــا واجراها على سنتهـــا هو الله خالق كل شيء . فمن زعم ان الطبيعة تخلق شيئاً فهو مجنون.

وعبث به التتر والمغول مرتين ، مرة في أواخر القرن السابع الهجري إذ عطلوه واتخذوه معسكراً لهم ، ونصبوا فيه المنجنيقات لرمي القلعة ، ومرة على عهـد تيمورلنك الذي أساء الى دمشق اســاءة لم يأت مثلها أحد .

ثم كان الحريق الاخير سنة ١٣١١ الذي ذهب بالمسجد كلـه (أي الحرم) وجدده أهل الشام وفيما يلي من الفصول ، بعص التفصيل لهذا الاجمال .



جولة في الأموي

تعالوا أولاً ، نلم بالمسجد كله بنظرة واحدة ، أكون أنا فيها دليلكم ، أصفه لكم باجمال وايجاز ، ثم أعود في الفصول التالية ، فأفصل ما أجملته ، وأسهب فيما أوجزته .

السور والدهاليز

نحن الآن في باب البريد ، أترون هذه القنطرة وهذه الأعمدة الكبار؟ هذه بقايا أعمدة السور الخارجي للمعبد ، والكتابات التي تبدو عليها كتابات محدثة من عهد المماليك .

أما قناطر السور الداخلي ، فترون بقايا ركائزها لاصقات بالجدران على طرفي باب المسجد .

وكان لكل باب من الابواب الاربعة دهليز ، وأعظمها دهليز الباب الشرقي ، ثم الباب الغربي (وهو هذا) ثم الباب الشمالي ، ولا تزال آثار ذلك كله واضحة ، ولا تزال بقايا أعمدة الدهليز الشرقي وأعمدته الكبار ماثلة قد غطتها الدكاكين .

وقد بقيت هذه الدهاليز الى القرن السادس وترون وصفها فيما كتبه ابن جبير وأثبتناه في آخر هذا البحث .

مداخل الأموي

وهذه الدكاكين التي تشوه منظر الجامع في السوق الضيق من هنا ،

وفي القباقبية من هناك ، كان الامراء يمنعون أمثالها حرمة للاموي ، وقد صدر الامر سنة ٦٤٧ هـ بهدمها كلها . وكانت عنايتهم بمداخل الاموي وما حوله كعنايتهم به نفسه ، ففي سنة ٦١٠ أمر الملك العادل بوضع سلاسل في أيام الجمع على الطريق المؤدية الى الجامع كيلا تصل الدواب اليـــه ، كالسلسلة الممدودة الآن على مدخل سوق الحميدية ، في موضع باب النصر الذي كان أحد أبواب دمشق[1] .

وفي سنة ٦٦٣ بلط الطريق من باب الجامع الى قنـــاة كانت عند درجات المسكية التى أزيلت من نحو أربعين سنة ونحن نعرفها ، وعمل الى جانبها القبلي بركة وشاذروان (الشاذروان معناه عندهم لسان من البنـاء يتدفق منه الماء أو نحو ذلك ولا يزال يستعمل بهذا المعنى في الحجـــاز والكلمة فارسية الاصل) وغطيت الساقية التي كانت هناك ، وجعل للبركة أنابيب يجري فيهـا الماء الى الجهة المقابلة ، وسحب ماؤهـا من نهر قنوات لينتفع بها الناس عند انقطاع ماء نهر باناس (بانياس) .

ولقد خبرني ناظر الجامع الشيخ حمدي الحلبي أن تلك الساقية لا تزال موجودة ولكنها مغطاة وهي تمر تحت بيت الخطابة .

النوفرة :

وكان من عنايتهم بتجميل مداخل الاموي ، أن أقيمت الفوارة (النوفرة) أسفل درج المسجد عند باب جيرون . وقد أنشئت سنة ٤١٦ وجرّ اليها الماء من نهر قنوات ظاهر قصر حجاج (نسبة للحجاج بن الوليد بن عبد الملك)

---

(١) (رآه ابن جبير وذكره في رحلته واندثر من عهد بعيد) ومن المصادفات غـير المقصودة ان سمي الشارع المقابل له بشارع النصر وهو اول شارع حديث في دمشق فتحــه جمال باشا سنة ١٩١٦ .

فوصل اليها الماء ليلة الجمعة ٧ ربيع الاول ٤١٧ وكان القائم بانشائها القاضي حمزة الحسيني ناظر الجامع .

وسقطت سنة ٤٥٧ من جمال احتكت بها فأعيد انشاؤها . ثم سقطت عمدُها وما عليها في حريق اللبادين (النوفرة) وباب الساعات في سنة ٥٦١ وكان حريقاً عظيماً وأعيد بناؤها .

وفي سنة ٥١٤ أقيم عليها شاذروان .

وفي سنة ٦٠٧ تخربت فاصلحت وجدد الشاذروان والبركة وبني أمامها المسجد وجعل له امام راتب .

وفي سنة ٨١٤ بيض شاذروان الفوارة وأعيد جري الماء فيها بعدما انقطع أمداً .

أبواب الأموي

وللمسجد ستة مداخل .

هذا المدخل الذي تقف عليه الآن وهو باب البريد وهو كما ترون ثلاثة أبواب ، باب كبير في الوسط ، وبابان على جنبيه ، وكان ثاني المدخلين الرئيسيين للمعبد .

أما المدخل الرئيسي الاول فهو باب جيرون المقابل له وعرف بعد القرن الخامس بباب الساعات وباب اللبادين وهو مثله في ثلاثة أبواب ويسمى الآن باب النوفرة . وقوسه لا يزال كما كان من القديم . وقد بقي باب المعبد الاصلي وهو من خشب الصنوبر البالغ المتانة ، وكان مصفحاً بالنحاس ، له مسامير كبار بارزة الى حريق سنة ٧٥٣ فتشوه وأثر فيه الحريق فنقل الى خزانة الحاصل (أي الى المستودع) ثم فقد . وقدر المؤرخون عمر هذا الباب حين الحريق بأكثر من الف سنة .

ثم المدخل المسدود الآن وهو وراء المحراب وله باب كبير في الوسط وصغيران على الجانبين وكان يدخل معاوية والخلفاء من الاوسط فلما بنى الوليد المسجد وأزال الكنيسة صار الخلفاء يدخلون من الباب الاصغر على يسار المحراب .

والباب القبلي هو الذي كان يعرف بباب الزيادة وكان يسمى باب الساعات ثم انتقل هذا الاسم الى باب جيرون لان الساعات نقلت اليه ، ويسمى الآن باب القوافين .

وباب الناطفانيين وهو باب الفراديس ويسمى الآن باب العمارة .

والباب المحدث الى مدرسة الكلاسة .

وفي سنة ٦٠٧ جدد باب البريد (أي الابواب الثلاثة) وركبت عليها صفائح النحاس الاصفر . وجدده الملك الظاهر كذلك سنة ٦٧٣ .

وفي سنة ٧١٩ حليت الابواب وحسنت . كان قد سد البابان الصغيران من الباب الشرقي (باب جيرون) بعد حادثة تيمورلنك وبنيت دكاكين في رحبة الجامع فهدمت أول سنة ٨٢٠ . وركب البابان الصغيران الغربيان سنة ٨١٩ . والبابان الشرقيان سنة ٨٢٠ . وقد جددت صفائح النحاس على الابواب حديثاً [١] .

خلع النعال

ولنخلع الآن النعال ولندخل .

وكان الدخول الى المساجد في أول الاسلام بالنعال ، لان الارض في الحجاز جافة والمساجد غير مفروشة وكذلك كان يدخل الى صحن الاموي ،

---

(١) انظر الفصل الملحق بهذا الكتاب

كما يظهر ، وفي ربيع الآخر سنة ٨٢٧ فوض النظر على الجامع الى امامه الحنفي ، وهو رجل مصري يقال له تقي الدين العمادي ، فألزم الناس ألا يمشوا في الصحن الا حفاة ، فشق ذلك عليهم ، ولكنه أصر وعمل على الابواب درابزينات وحواجز لخلع النعال وبقي ذلك الى شوال من تلك السنة ، ثم عزل العمادي ، وعاد الناس الى ما كانوا عليه .

وفي سنة ٧٢٢ لما جدد المسجد بعد حادثة التتار ، منع ناظر الجامع ابن المرحل [1] ، الدخول بالنعال ، بأمر نائب الشام تنكز . وفي شعبان سنة ٨١٦ سمح بالمشي فيه بالنعال . ثم منع ذلك في وقت من الاوقات ، واستمر المنع الى الآن .



---

(١) وهو محمد بن عمر العثماني

في صحن الأموي

لقد دخلنا من باب البريد ، نحن بين بابين على اليمين وعلى اليسار ، لندخل من اليسار ، هذه القاعة الكبيرة التي اتخذتها دائرة الاوقاف للاستقبال هي مشهد عثمان .

والمشاهد مساجد صغيرة ملحقة بالجامع كان لكل منها امام خاص .

فاذا خرجنا منه ، وجدنا بعده باباً لغرفة واسعة ، وكانت تسمى قديماً بيت الزيت الغربي ، وكانت (كما هي اليوم) مستودعاً للمسجد .

فاذا صرنا في زاوية الرواق ، وجدنا آثار غرفة ، كانت هناك قديماً هي زاوية الغزالي لأنه نزل بها ، وهي في الاصل أساس الصومعة الغربية التي أزيلت هي والشرقية المقابلة لها قبل الفتح الاسلامي .

وهذا الباب الصغير المفتوح في شمالي المسجد ، هو باب مدرسة الكلاسة التي أنشأها نور الدين سنة ٥٥٥ ، ثم احترقت هي ومنارة العروس بعد انشائها بأمد يسير ، فجددها صلاح الدين هي والمنارة ، وهي المنارة الرئيسية اليوم ، وفيها أذان الجماعة الذي أحدث في عصور متأخرة . ذلك لأنها تطل على صحن المسجد ، وفيها الآلة الفلكية التي تسمى البسيط ، والبسيط الذي كان فيها من صنع ابن الشاطر رئيس المؤذنين بالجامع في القرن الثامن ثم انكسر بيد جدنا الشيخ محمد الطنطاوي المتوفي سنة ١٣٠٤ فصنع البسيط الموضوع الآن ، ويقول الشيخ الخاني في كتابه (الحدائق) أنه جاء

أكمل من الاول إذ زاد فيه قوس الباقي للفجر [١] .

وبعد المنارة باب الفراديس ، ثم الخانقاه (وأصلها خانه‌قاه أي دار العبادة) السميساطية بناها السميساطي المتوفى سنة ٤٥٣ . وكانت في الاصل دار عمر بن عبد العزيز . ثم نوافذ التربة الكاملية التي دفن فيها الملك الكامل الايوبي ثم مشهد زين العابدين المعروف اليوم بمشهد الحسين ، في شرقي الصحن ، وفيه الآن القبر المشهور أن فيه رأس الحسين ، وفي المسجد الملاصق للأزهر في مصر قبر آخر لرأس الحسين ، ولابن تيمية رسالة في تحقيق مدفن الرأس مطبوعة معروفة .

ثم باب جيرون .

القباب

وفي الصحن ثلاث قباب .

أولاها : القبة الغربية (قبة المال) أنشأها الفضل بن صالح بن علي العباسي (ابن عم المنصور) لما كان أمير دمشق سنة ١٧١ أيام المهدي ، ويظهر أنها كانت مغلقة ، والناس يتوهمون أن فيها مالاً ، ولم اقف على خبر لفتحها الا ما كان سنة ٩٢٢ هـ إذ فتحها (سيباي) فلم يجد فيها الا أوراقا

---

(١) وقال الشيخ عبد القادر بدران في كتابه (منادمة الاطلال) :

«وقد بقي البسيط الذي صنعه ابن الشاطر الى سنة ١٢٩٠ هـ وكان شيخنا الشيخ محمد الشهير بالطنطاوي اماما في فن الهيئة والميقات في دمشق ، فرآه قد اختل لمرور السنين فجاء يحرره فانكسر فصنع غيره ولكنه رسمه على الافق الحقيقي ، وقد حصل له معاكسات من اهل دمشق وهجاه بعض ذوي الخلاعة والعقل المنحرف ثم انه رسم آخر على الافق المرئي ووضعه في جامع الدقاق في الميدان »

قلت : وهما موجودان الى الآن .

ومصاحف بالخط الكوفي ، وقد فتحت في سنة ١٣٠٦ فوجدت فيها مصاحف ومخطوطات نقلت الى اسطنبول .

ثانيتها : القبة الشرقية ، بنيت كذلك أيام المهدي سنة ١٦٠ وتعرف بقبة زين العابدين ، وكانت تسمى قبة يزيد ، وتسمى الآن قبة الساعات إذ كانت فيها ساعات المسجد .

والثالثة : القبة التي على بركة الماء ، وقد كانت من الرخام وأقيمت سنة ٣٦٩ [١] وكان لها أنابيب من نحاس قيل في وصفها :

فوارة كلما فارت فرت كبدي ... وماؤها فاض بالانفاس فاندفعا

كأنها الكعبة العظمى فكل فتى ... من حيث قابل أنبوباً لها ركعا

البلاط

كانت أرض الصحن كلها مغطاة بفصوص الفسيفساء ، لم يكن فيه بلاط ، وبقي ذلك الى حريق سنة ٤٦١ فذهب كله وصارت أرضه طيناً في الشتاء وغباراً في الصيف مهجورة ، وبقيت كذلك الى شعبان سنة ٦٠٢ فهدمت القنطرة الرومانية عند الباب الشرقي ، ونشرت حجارتها وبدىء بتبليط صحن الجامع الأموي بها على عهد الوزير صفي الدين وزير العادل وكمل تبليطه سنة ٦٠٤ ، وذلك أنهم لما أرادوا فتح نوافذ للتربة الكاملية المحدثة على الجامع ، لم يمكنوهم من ذلك الا بشرط تبليطه .

وفي سنة ٦١١ جدد بلاط أرض الجامع من الداخل بعدما صارت حفراً و (جوراً) وتم سنة ٦١٤ ووضع متولي دمشق مبارز الدين ابراهيم (المتوفى سنة ٦٢٣) آخر بلاطة بيده ، وكانت عند باب الزيادة ، وكان ذلك على عهد الملك العادل .

وكان الملك الظاهر قد أصلح في الجامع اصلاحات كثيرة منها أنه فرش

(١) وفي منادمة الاطلال ٣٩٦ .

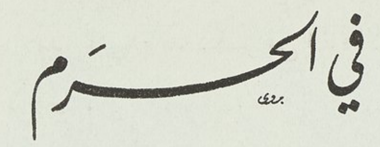
باب البريد بالبلاط نحو سنة ٦٧٠هـ أما بلاط الصحن الحالي فقد رصف نحو سنة ١٣٠٠ على عهد الناظر الشيخ أحمد الحلبي وقد تكسر من القاء الاعمدة عليه عند عمارة المسجد بعد الحريق الاخير .

ومستوى أرض الجامع اليوم أعلى من أرضه على عهد الوليد . وتبين من حفريات مهندس الاوقاف [١] أيام الانتداب ، حول قبة المال ، أن قواعد الاعمدة على عمق ثلاثة أمتار [٢] والقبة بنيت أيام المهدي العباسي ، وأخبرني جار الجامع الشيخ عبد القادر العاني ، أنه رأى عند الحفر لتجديد الحائط قطعة من أرض الجامع الاصلية مغطاة بفصوص على شكل الفسيفساء على عمق مترين ونصف ، ولكن هذه الفصوص أكبر من فصوص فسيفساء الجدران ، وأقدم قطعة من البلاط اليوم هي التي أمام العمود الرابع من الرواق الغربي ، وفيها حجران كبيران يظهر أنهما من القنطرة التي هدمت لرصف الجامع بالبلاط سنة ٦٠٢ .



(١) ايكوشار

(٢) اما ارض الجامع فالغالب انها كانت تحت الارض الحالية بنحو نصف متر فقط .



في الحرم

فلندخل الآن الى الحرم ، ان هذه الابواب المتصلة المفضية الى الحرم، لم يكن لها في الاصل مصاريع ، وانما كانت عليها الستر الى حريق سنة ٤٦١ ، فاذا دخلنا ، وجدنا الى اليسار ، مشهد أبي بكر ، المعروف الآن بمشهد السفرجلاني ، ثم مدخل المنارة الشرقية ، ثم المحراب المالكي ، وهو المحراب الاصلي للمسجد قبل أن يبنيه الوليد ، وكان يسمى محراب الصحابة [١] وأنشىء المحراب الكبير ، عند عمارة الوليد وجعل للخطيب .

في سنة ٦١٧ نصب محراب الحنابلة بالرواق الثالث الغربي (قرب البئر) أي وراء الصف الثالث من الاعمدة ، وقد عارض في نصبه بعض الناس ، ولكن ركن الدين المعظمى ، قام بنصرة الحنابلة ، وصلى فيه الموفق بن قدامة المقدسي ، ثم رفع في حدود سنة ٧٣٠ ، وعوضوا عنه بالمحراب الغربي عند باب الزيادة ، وهو باق الى اليوم .

وعمل محراب الشافعي (الآن) سنة ٧٢٨ بأمر تنكز ، وخص بالحنفية، وصارت المحاريب أربعة : محراب الخطيب ، ومحراب الحنفي (وهو الشافعي الآن) ، والمالكي والحنبلي .

وكانوا قبل سنة ٦٩٤ يصلون في وقت واحد ، ثم رسم للحنابلة أن يصلوا قبل الامام الكبير ، وفي سنة ٨١٩ انتقل الامام الاول من محراب المالكية ، الى محراب الحنفية (وهو الشافعي الآن) . ثم استقرت الحال على ان أول من

---

(١) والمحاريب لم تكن على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وهي مما أحدث .

يصلي امام الكلاسة ، ثم امام مشهـــد الحسين ، ثم الشافعي ، ثم المالكي ، ثم الحنبلي ، ثم امام مشهد أبي بكر ، ثم إمام مشهد عروة ، ثم امام مشهد عثمان . ثم اقتصر الامر على أئمة المسجد الاربعـة والعمل على ذلك الى الآن بهـذا الترتيب ، أي الشافعي فالحنفي فالمالكي فالحنبلي [١] .

القبر

أما القبر فقد نقل ابن عساكر أنهم رأوا عند عمارة المسجد مغارة ، فخبروا بها الوليد ، فنزل اليها والشموع بين يديه فوجد كنيسة صغيرة ، ثلاثة أذرع في ثلاثة أذرع ، فيها صندوق فيه سفط (قفة) فيه رأس ، سليم الجـلدة والشعر ، مكتوب عليه أنه رأس يحيى بن زكريا ، فأمر بتركه على حاله ، وجعل للعمود القائم على المغارة علامة تميزه ، وبقي كذلك فترة ثم وضع فوقه تابوت عليـــه اسم يحيى ، رآه ووصفه (كما سيأتي) ابن جبير في أواخر القرن السادس الهجري ، وبقي ذلك الى تاريخ رحلة ابن بطوطة ، ثم أقيمت هذه القبة في وقت لم أقف على تحديده الى الآن .

ولم يتخذ الوليد عليه قبراً ، لأنه لم يثبت عنده أن الرأس ليحيى ، ولأن إقامة القبور في المساجد أو بناء المساجد عليها ممنوع في الاسلام ، والرسول ﷺ حذر منه ولعن فاعله ، وكان ذلك من آخر مانطق به ﷺ قبل وفاته [٢] .

ولا يحتج لجواز اتخاذ القبور مساجد بقبره ﷺ ، فان قبره لم يكن في

---

(١) الصحيح من السنة انه لايجوز تكرار الجماعة في مسجد له امام راتب ، وعلى ذلك مذهب الحنفية (الحاشية) ١ : ٢٦٥ - ١ : ٣٧١ .

(٢) وفي كتب الحنفية المنع من ذلك (الحاشية ١ : ٦٠١ والهندية ٥ : ٦٦) .

المسجد ، بل كان في داره ، فلما دخلت الدار في المسجد عند التوسعة [١] ، صار فيه ، وقد نص الحنفية على أن من آداب زيارة قبره ﷺ ألا يستقبل الزائر القبر بل يقف من جهة رأسه الشريف ويصلي عليه ويدعو له ، وهو مستقبل القبلة [٢] .

مع أن الثابت من تاريخ سيدنا يحيى بن زكريا عليهما السلام ، وهو الذي يسميه النصارى (يوحنا المعمدان) أنه كان على عهد المسيح عليه السلام ، وأن الامبراطور الروماني ، أمر بقتله وسلم رأسه الى (تلك) الراقصة الفاجرة ، فعبثت به ولم يعلم مصيره ، فهو قد قتل في الاردن ، قبل عمارة الاموي بنحو ستمئة سنة ، فمن أين وصل الرأس الى هذه المغارة ؟ وكيف قطع هذه المسافة على الارض ، وهذه المسافة في الزمان ، ثم استقر سليماً في هذا السفط ؟

أما تسمية الكنيسة بمار يوحنا فلا يدل على شيء ، لان عند المسيحيين أكثر من عشرين كنيسة ، في كل منها قبر ليحيى عليه السلام [٣] ، هذا وعندهم أكثر من عشرين قديساً باسم (مار يوحنا) فمن قال بأن الاسم المقصود هنا هو ليوحنا المعمدان ؟

وعلى فرض صحة الخبر الذي رواه ابن عساكر ، فانه لا يثبت الا أنهم وجدوا رأساً عليه اسم يحيى لا يعرف من كتبه ولا تاريخ كتابته ، وليس لدينا أي دليل على أن هذا القبر هو ليحيى ، وليس لدينا دليل (كذلك) على نفي أن فيه رأس يحيي عليه السلام . فالله أعلم بحقيقة الحال .

---

(١) انظر كتابي (من نفحات الحرم) .

(٢) الهندية عازيا الى الاختيار (شرح المختار)

(٣) وفي قرية سبسطيا قرب نابلس حيث قتل ، قبر له يقدسه النصارى .

ووراء المحراب والمنبر ، الباب الذي سد من قديم ، ويبدو أعلاه الآن للمار من القباقبية ، ظاهراً من وراء الدكاكين .

وكان بعـد المنبر ، مقصورة الخطابة ، ثم بيت الخطابة ، وهي موجودة ، ثم محراب الشافعي ، ثم باب الزيادة ، ثم محراب الحنبـلي ، في موضع المقصورة المسماة بمقصورة الخضر ، ثم قاعـة الحنابلة[1] ، ثم المئذنة الغربية ، ثم مشهد عروة (أو ابن عروة) على الجانب الايمن للداخل باب البريـد .



---

(١) ووقف عليها جد آل العطار بدمشق اوقافاً وهي بايديهم الى اليوم .

عمارة الأموي

عمارة المساجد ، من هدي الانبياء وسنن المؤمنين ، وقد بنى ابراهيم وابنه اسماعيل عليهما الصلاة والسلام الكعبة ، البيت الحرام ، وكان أول ماصنعه الرسول ﷺ بعد الهجرة ، هو بناء مسجد المدينة ، وان كانت عمارة المساجد بالعبادة والعلم والايمان مقدمة على تثبيت الاركان ، وتعلية الجدران ، والاكثار من الزخارف والالوان ، بل ان زخرفة المساجد ، والزيادة في عمارتها على حد الضرورة مما كرهه الاسلام ورغب عنه السلف الصالح .

وقد نص الحنفية على ان الكتابة على جدرانها ، ولا سيما في القبلة ، لا تستحسن [١] .

وكان هذا المسجد في الاصل معبداً وثنياً ، فأخذه النصارى فصيروه كنيسة ، فلما كان الفتح الاسلامي ودخل خالد عنوة من جهة الباب الشرقي ، ودخل أبو عبيدة صلحاً من جهة باب الجابية ، تم الاتفاق على أن تقسم الكنيسة قسمين ، ماكان منها في الارض التي وصل اليها ابو عبيدة صلحاً بقي كنيسة ، وماكان منها فيما فتح عنوة صار مسجداً ، وكانت هذه قوانين الحرب المتعارفة ، وكان للظافر أن يمتلك المرافق العامة فيما فتحه بالسيف ، وبذلك القانون أخذ النصارى هذا المعبد الوثني من قبل وصيروه كنيسة .

---

(١) البزازية (على هامش الهندية) ٦ : ٣٧٠ .

وكان المسجد في أقل من نصف مساحتـــه الآن (أي من باب النوفرة الى ماقبل القبة) ، وكان له محراب واحد هو محراب المالكية اليوم .

واستمرت الحال على ذلك الى أيام الوليد ، فكان النصارى يصلون فيؤذن المسلمون فيزعجونهم ، ويصلي المسلمون فيضرب النصارى النواقيس . وضـــاق المسجد بأهله ، وأراد الوليد أن يضم الكنيسة الى المسجد ، وكان الوليـــد هو الحاكم المطلق في نحو عشرين دولة من دول اليوم هي الجمهورية العربيـة المتحدة والعراق والاردن وفلسطين والحجاز واليمن وتركيا وليبيا وتونس ومراكش والجزائر واسبانيا والحبشة وايران والافغان وجمهوريات ارمينية وبخـــاري وتركستان وقسم من باكستان . ولكنه كان مع هذا السلطان مقيداً بقيد القرآن. والقرآن والسنة يحرمان ظلم المواطن الذمي ، أي المواطن المسيحي بعرف الناس اليوم ، ولا يجوز التعدي عليه ما لم ينقض هو العهد ، لذلك لم يقدر أن يصدر أمراً بأخذ الكنيسة جــبراً ، فدعا رؤوس النصارى وعرض عليهم أن يعطوه بقية الكنيسة ويبني لهم بدلاً منهـا ، كنيسة أعظم منهـا ، فأبوا ، فعرض عليهم أن يبني لهم أربع كنائس ، ويعطيهم مبـالغ ضخمة من المـال فأبوا ، وقالوا اننا نتمسك بالعهد الذي كان بيننا وبينـكم . فقال لهم : أنتم خالفتم العهـد وأحدثتم كنائس جديدة لم يكن في المعاهدة بناؤها فأنا أهدمها .

وعزم على ذلك ، ودخل عليه أخوه المغيرة فوجده مهموماً فقـال : مالك يا أمير المؤمنين ؟

فخبره ، فقال : أخرج العهد فانظره . فأخرجه فنظر فيه ، فاذا القسم المفتوح عنوة ، يمتد الى آخر الكنيسة وبذلك تكون كلها حقاً للمسلمين ، فألف لجنة مشتركة (اسلامية ونصرانية) فقامت بمسح ذلك ، فظهر بالمساحة ان الكنيسة كلها من حق المسلمين ، وأنها تدخل المسجد . فقالوا : ياأمير المؤمنين ،

كنت أقطعتنا أربع كنائس ، وعرضت علينا من المال كذا وكذا ، فان رأيت أن تتفضل به علينــــا . فامتنع أولا ، ثم أعطاهم الكنائس الاربع ، وبنى لهم كنيسة مار يوحنا الكبرى . أي ان الدولة الاسلامية ، في أقوى عصورها ، تبني للنصارى الكنائس من مالها ، ثم يتذرع المستعمرون بالخوف على النصاري في بلادنا من حكم الاسلام !

وقالوا : ان من يهدم الكنيسة يجن . فأخذ الوليد المعول وقال : أنا أحب أن أجن في سبيل الله . وضرب به وتبعه الناس ، ثم دعوا باليهود فأكملوا هدمها ، ولم يبق في المسجد من الكنيسة الا الجدران وأساس الصومعتين الاماميتين ، على أن صاحب معجم البلدان يروي أنه نقض الحيطان وأعاد بناءها على أساس جديد حفر له حتى بلغ الماء .

وسمع امبراطور القسطنطينية بذلك ، فأراد أن يصرفه عن عمارة المسجد ، فكتب اليه : ان كان هدم الكنيسة حقاً وصلاحاً ، ولم يفعله أبوك ، انه لوصمة عليك . ولما ورد الكتاب على الوليد ، قعد يفكر في جوابه ، فدخل عليـــه الفرزدق الشاعر فقال له : جوابه حاضر ، وهو قوله تعالى : (ففهمناها سليمان وكلاً آتينا حكما وعلماً) .



وحشد لبنائه العمال من كل مكان وأراد أن يقيم السقف على اسطوانات (أعمدة) فاقترح عليه بناء شامي ، أن يقصر الاعمدة ، ويعقـــد بعضها بأقواس ، ويقيم فوقها أعمـــدة صغاراً ، لها قناطر تحمل السقف ، فصنع ذلك وبقي الى يومنا هذا .

هندسة الاموي :

وكانت هندسته مبتكرة ، شهد بذلك كل من رآه من قديم وحديث من المسلمين وغير المسلمين .

من ذلك أن المهدي لما قدم الشام في طريقه الى بيت المقدس ، دخل مسجد دمشق ، ومعه كاتبه أبو عبيد الله الاشعري ، فقال له : يا أبا عبيد الله سبقنا بنو أمية بثلاث .

قال : وما هن يا أمير المؤمنين ؟

— قال : هذا البيت (يعني المسجد) ، ونبل الموالي ، فان لهم موالي ليس لنا مثلهم ، وعمر بن عبد العزيز لا يكون فينا مثله أبداً .

ولما وصل الى بيت المقدس ورأى قبة الصخرة ، قال : يا أبا عبيد الله وهذه رابعة .

ولما دخل المأمون مسجد دمشق ، ومعه المعتصم ، ويحيى بن أكثم ، قال لهما :

— ما أعجب مافي هذا المسجد ؟

— قال المعتصم : ذهبه وبقاؤه فانا نجعله في قصورنا فلا تمضي عليه العشرون سنة حتى يتغير .

— قال : ماذاك الذي أعجبني منه .

— قال يحيى : تأليف رخامه ، فاني رأيت شيئاً مارأيت مثله .

— قال : ماذاك الذي أعجبني منه .

— قالا : وما الذي أعجبك ؟

— قال : بنيانه على غير مثال متقدم .

ووصفه أحد الكتاب ، وكان قدم دمشق سنة ٤٣٢ هـ . بأنه بكر

الدهر، ونادرة الوقت، وأن أمية أبقت به ذكراً لا ينقطع . وقال صديقنا الدكتور صلاح المنجد[1] بأن المستشرقين العارفين بالآثار مقرون بأن تخطيط المسجد وهندسته شيء مبتكر، لا يشبه هندسة الكنائس البيزنطية، وان كثيراً منها يخرج عن طريقة العمارة السورية النصرانية المتوارثة .

بناء القبة

ولما أقيم هيكل البناء عمد الوليد الى رفع القبة وأرادها سامقة باسقة ، فلما تمت سقطت ، فشق ذلك على الوليد فجاءه بناء شامي ، فقال : أنا أرفعها بشرط . قال : وما هو ؟ قال : أن تعطوني عهد الله ألا يمد أحد غيري يده الى بنائها . قال : لك ذلك .

فحفر حتى بلغ الماء ، ثم وضع الاساس وغطاه بالحصر ، واختفى ،وطلبوه سنة كاملة فلم يصلوا اليه ، فلما كان بعد السنة جاء ، فقال له الوليد : مادعاك الى ماصنعت ؟ فقال : تخرج معي حتى أريك . فخرج والناس معه ، حتى كشف الحصر ، فوجد البنيان قد انحط ونزل قليلا . قال : من هنا كان سقوطها فابن الآن فانها لاتهوي ان شاء الله . وبنى واستقرت القبة .

هدية اليهودية

وعزم على أن يغطي القبة بالذهب ، فنهاه العقلاء وأروه ان ذلك يستفرغ خزائن من المال ولا ينفع شيئاً ، فأمر أن تغطى بالرصاص . وجمع

---

(١) في رسالته (مسجد دمشق) وهي نص ثمين في ذكر شيء مما استقر عليه المسجد الى سنة ٧٣٠ هـ وكل مافي هذا النص موجود بعبارته او باكثر تفصيلا في ذيل الدارس .

الرصاص من كل مكان ، وبقيت قطعة من السقف لم يجدوا لها رصاصاً الا عند امرأة أبت أن تبيعه الا بوزنه ذهباً ، فكتب بذلك العامل الى الوليد ، فقال له : اشتره منها بوزنه ذهباً فلما قال لها ذلك ، قالت : هو هدية مني الى المسجد . فقال لها : كيف ضننت به أولاً إلا بوزنه ذهباً ثم سمحت به هدية ؟ قالت : أنا لا أريد الذهب ولكن أردت أن أختبر عدل الاسلام . قالوا : وكانت يهودية . فكتب على صفائحه كلمة (لله) .

الأروقة والفسيفساء

فتم المسجد صحناً مكشوفا ، حوله ثلاثة صفوف من الاعمدة من غرب وشمال وشرق ، وحرم مسقوف ،في وسطه رواق عال من الشمال الى الجنوب تتوجه قبة النسر ، وثلاثة اروقة من الشرق الى الغرب ، كانوا يسمونها البلاطات وكله من المرمر ، وقد أسدلت على أبواب الحرم وعلى الثلث الادنى من جدرانه ، الستور المزدوجة ، كما يكون اليوم في دور الموسرين المترفين ، ولكنها من الديباج والوشي ، وغطي باقي الجدار وجدران الصحن بالفسيفساء ، والفسيفساء (والكلمة يونانية أصلها بسيفوسيس) فصوص صغيرة ، تكون من الزجاج والحجر ، ومن الرخام ومن الصدف ، مختلفة الالوان والاشكال ، فمنها المثلث والمربع والمستدير والمستطيل ، ترصف على طبقة من الجص المصمغ أو نحوه ، وربما صنعت فصوصها من مواد مختلفة ، تخلط وتطبخ على طريقة كانت معروفة ، وربما حليت بالذهب وغطيت بطبقة من الزجاج أو ما يشبهه . وقد توصلت وزارة أوقاف الشام الى صنع مثلها في هذه الايام .

وكانت أرض المسجد وجدرانه وسقوفه ، مغطاة بهذه الفصوص

المذهبة[1] ، التي جمعت صور بلاد الدنيا (كما قال المؤرخون) فما يريد المرء إقليماً الا وجده في الجامع ، مصوراً كهيئته ، فيراه من غير أن يتعب بالسفر اليه. وصور كل شجرة ، مثمرة وغير مثمرة ، ومكة والكعبة فوق المحراب ، والى جنبها صورة كرمة ، حسبوا ما أنفق عليها فقالوا ، إنه بلغ سبعين الف دينار . والله أعلم .

ويظهر من خبر المأمون (وقد تقدم) أن هذه النقوش بقيت على رونقها وزينتها الى عصره .

وفي خبر أبي الليث الذي رواه ابن عساكر أنها بقيت الى سنة ٤٣٢ هـ ، بل لقد بقيت على حالها الى حريق سنة ٤٦١ كما نقل ابن كثير .

القناديل

وعلق في المسجد قناديل البلور ، في السلاسل المذهبة ، وجعل فيها المسك ، فكان الناس اذا أطفئت يأخذون بأنوفهم من ريح المسك ، وكان فيها ثريا ثمينة نادرة تسمى (القليلة) فبقيت الى أيام الامين ، وكان يحب البلور ، فكتب الى والي دمشق أن يوجه بها اليه ، فلما قتل ردها المأمون الى مكانها ، وكانت في محراب الصحابة (محراب المالكي الآن) ثم ذهبت فجعل مكانها برنية من زجاج ، ثم انكسرت فلم يجعل في مكانها شيء .

نفقات البناء

وهال الناس ما أنفق الوليد على المسجد ، وتكلموا فيه ، وكانت للشعب رقابة فعلية على الخليفة ، وان لم تكن يومئذ صحف ولا برلمان ،

---

(١) ثم رصفت ارضه بالبلاط بعد ذلك (كما تقدم) .

وأتاه حاجبه وقال : يا أمير المؤمنين ، ان الناس يتحدثون انك أنفقت الاموال في غير حقها فنادى : الصلاة جامعة . وكان هذا النداء بمثابة دعوة للنـــاس الى اجتماع شعبي طارىء ، فاجتمعوا في المسجد ، فقال لهم : لقد أبلغني حرسي انـكم تقولون ان الوليد أنفق الاموال في غير حقها ، ألا يا عمر بن مهـــاجر (وكان أمين الخزانة) قم فاحضر ما لديك من الاموال في بيت المال . فأتت البغال تدخل بالمال ويصب على الانطاع ، حتى ان من كان في جهـــة الشمال لم يبصر من كان في جهـة القبـلة . قال : الموازين ! فأتت الموازين ، فوزن المـــال وأحصي فوجدوا ان في بيت المـال من المدخر ما يقوم بنفقات الدولة سنين .

صفائح التاريخ

وكتب تاريخ المسجد على صفائح مذهبة فيهـا : « بسم الله الرحمن الرحيم . الله لا إله إلا هو الحي القيوم . لا تأخذه سنة ولا نوم . له ما في السموات وما في الارض . من ذا الذي يشفع عنده إلا باذنه . يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم . ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء . وسع كرسيه السموات والارض ولا يؤوده حفظهما وهو العلي العظيم .

لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، لا نعبد إلا إياه ، ربنا الله وحده ، ودينـنا الاسلام ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم .

أمر ببنيان هذا المسجد وهدم الكنيسة التي كانت فيه عبدالله الوليـــد أمير المؤمنين في ذي القعدة من سنة ست وثمانين » .

النصارى والأموي

ولما كانت خلافة عمر بن عبد العزيز ، ورأى النصـــارى عدله وسيرته ، وحكمه برد مدينة سمرقند الى أهلهـــا لمـــا جاؤوا ببينة على أنهـــا فتحت

غدراً [1] ، طمعوا في استرجاع الكنيسة ، ورفعوا دعواهم اليه وأدلوا بالمعاهدة التي شرطت لهم ألا تهدم كنائسهم ، ولا تسكن ، فكلمهم وحاول ارضاءهم ودفع لهم مئة الف دينار أي نحو مليوني درهم . فأبوا . فأمر بأن تعاد اليهم الكنيسة ، وكلف محمد بن سويد الفهري بهـذه المهمة فأكبر ذلك محمد وأكبره الناس ، وقالوا : كيف ندفع اليهم مسجدنا بعدما صلينا فيه وقرأنا فيهدم فيعـاد كنيسة ؟

فقال رجل منهم : ارفعوا دعوى (مقابلة) الى أمير المؤمنين ، بأننا نتمسك بالمعاهدة ، والمعاهدة تحمي كنائسهم التي كانت حين الفتح ، ولكنها تمنعهم أن يحدثوا غيرها ، وقد أحدثوا بعد الفتح سبع كنائس مالهم فيها حق ، وعليهم بحكم المعاهدة أن يهدموها . فان أحبوا فانا نعطيهم الكنيسة التي صارت مسجدا ، ونهدم كل ما أحدثوا من كنائس ، وان شاؤوا تركت لهم كل كنيسة أحدثوها ، ونجعل للمعاهدة ملحقاً نعترف لهم بها فاستمهلوا ، ثم قبلوا بذلك ، وتنازلوا عن دعواهم .

عمر وزخارف الأموي

ثم نظر عمر الى هذه الزينة ، وهذه الزخارف ، فعزم على ابطالها ، لان كل ذلك مخالف لسنة الرسول ﷺ في بناء المساجد ، والاسلام يكره زخرفة المساجد ، والسرف في بنائها ، لئلا تشغل المصلين بروعة بنائها عن مراقبة ربهم ، وحسن التوجه اليه ، وكل ما نرى في المساجد الآن من الزخرف والفن والنقوش والتعالي في البنيان والتزيُّد من الفرش ، كل ذلك مما رغب الاسلام عنه وكرهه ، كما كره اقامة القبور فيها والكتابة على جدرانها .

ثم ان عمر بن عبد العزيز قال : لقـد هممت أن أعمد الى تلك الفسيفساء ، وذلك الرخام فاقلعه ، وأجعل مكانه طوباً ، وأنزع تلك

---

(١) انظر « قضية سمرقند » في كتابي « قصص من التاريخ » .

السلاسل واجعل مكانها حبالا ، وأنزع تلك البطائن (أي الستائر) فأبيع جميع ذلك ، وأدخله بيت المال ، فبلغ ذلك أهل دمشق ، فاشتد ذلك عليهم، فخرج اليه أشرافهم ، وفيهم رجل يقال له خالد ، فقال : ائذنوا لي حتى أكون أنا المتكلم . فأذنوا له . فلما أتوا دير سمعان ، استأذنوا على عمر ، فأذن لهم ، فلما دخلوا سلموا عليه ، فقال خالد : يا أمير المؤمنين بلغنا أنك هممت أن تفعل كذا وكذا في مسجدنا ، فقال لهم : رأيت أموالاً أنفقت في غير حقها وأنا مستدرك ما أدركت فأجعل قرارها في بيت المال ، فقال له خالد : والله ماذلك لك يا أمير المؤمنين . فقال له : لمن هو ؟ ألأمك الكافرة ؟ وغضب عمر ، وكانت أم خالد نصرانية (١) . فقال له : ان تكن كافرة ، فقد ولدت مؤمناً . فاستحيا عمر ، وقال : صدقت . ثم قال : مامعنى قولك ماذلك لي ؟ فقال : لانا كنا معشر أهل الشام واخواننا من أهل مصر ، واخواننا من أهل العراق ، نغزو فيفرض على الرجل منا أن يحمل من أرض الروم قسما من الفسيفساء،وذراعا في ذراع من رخام ، فيحمله أهل العراق الى العراق وأهل حلب الى حلب،ويستأجرون من يحمله الى دمشق ويحمله أهل حمص الى حمص ويستأجرون من يحمله الى دمشق ويحمل أهل دمشق ومن وراءهم حصتهم الى دمشق . فذلك قولي ، ماذلك لك . فسكت عمر . ثم جاء كتاب من يزيد بن معمر يخبره ، أن قارباً ورد عليه من رومية فيه عشرة من الروم ، عليهم رجل منهم ، يريدون الوفود على أمير المؤمنين ، فكتب اليه ان وجههم الي ، ووجه معهم عشرة من المسلمين واجعل عليهم رجلاً منهم وليكن ممَّن يحسن التكلم بالرومية ولكن لا يعلموهم بانهم يعرفون لغتهم ، وذلك لاجل أن يحملوا كلامهم ، ففعل ما أمره به وساروا حتى أتوا دمشق ، فنزلوا خارج باب البريد،

---

(١) هو اذن خالد بن عبد الله القسري الذي صار امير العراق.

فسأل الروم رئيس العشرة من المسلمين ، أن يستأذن لهم الوالي في دخول المسجد ، فأذن لهم فمروا في الصحن حتى دخلوا من الباب الذي يواجه القبة ، فكان أول مااستقبلوه المنبر ، ثم رفعوا رؤوسهم الى القبة فخر رئيسهم مغشياً عليه ، فحمل الى منزله فأقام ماشاء الله أن يقيم ثم أفاق فقالوا له بالرومية : ما قصتك ؟ عهدنا بك من رومية وما أنكرنا منك شيئاً ، وصحبتنا في طريقنا فما أنكرناك ، فما الذي عرض لك حين دخلت هذا المسجد ؟ فقال : إنا معشر أهل رومية نتحدث أن بقاء العرب قليل ، فلما رأيت ما بنوا علمت أن لهم مدة سيبقونها ، فلذلك أصابني ما أصابني ، فلما قدموا على عمر أخبروه بما سمعوا منه ، فقال : لا أرى مسجد دمشق الا غيظاً على الكفار فنزل عما كان همَّ به من أمره .



اطوار الأموي واحداثه

مرت بالمسجد أحداث جسام ، لا أستطيع أن أستقصيها في هذه العجالة إنما أعرض اليها عرضاً ، وموعدنا بتفصيل أمرها كتابي الكبير عن الجامع ، ان وفق الله اليه وأذن باتمامه .

فمن أكبر الاحدات التي أصابته الحرائق .

الحرائق والزلازل

وكان بقي سليما ، جدرانه كلها وسقوفه مغطاة بفصوص الفسيفساء المذهبة ، ونقوشه بادية ، وستره مسدلة ، الى سنة ٤٦١ ، حين انقسمت الدولة دولتين ، وصارت الخلافة خلافتين ، وادعى العبيديون أنهم من نسل فاطمة رضي الله عنها ، وأقاموا حكومة باسمها ، اتخذت لها غير مذهب جمهور المسلمين مذهباً ، وأحدثت منكرات وبدعاً ، وكان الخلاف قد استحكم في دمشق بين غلمان العباسيين وغلمان الفاطميين ، ووصل الى سل السيوف واراقة الدماء ، والترامي بالنار ، فأصابت النار دار الامارة وهي الدار الخضراء (التي لم يبق منها الآن الا مصبغة صغيرة في زقاق ضيق ، اسمها المصبغة الخضراء) فاحترقت الدار وامتد الحريق الى المسجد ، فأكلته النار أكلاً ومحت محاسنه ، وأذهبت كل ما كان فيه ، فلم يبق منه الا الجدران الاربعة . وصارت أرضه بعد الفسيفساء التي تأخذ العقول ، تلالاً من التراب ، طيناً في الشتاء ، وغباراً في الصيف ، وجمعت فصوص الفسيفساء فأودعت في المشاهد ، الى أن أخرجها ناظر المسجد القاضي الشهرزوري أيام السلطان نور الدين .

وبقي المسجد مخربا أربع عشرة سنة حتى جددت عمارة السقف والقبة أيام ملكشاه السلجوقي على يد الوزير نظام الملك (مؤسس المدرسة النظامية) . أما الصحن فبقي تراباً وطيناً ، حتى بلط أيام الملك العادل بعد الستمئة . كما مر في الكلام على بلاط الجامع .

وفي سنة ٥٦٢ كان حريق حي اللبادين (النوفرة) فسرت النار الى الاموي، فأحرقت قسما منه من جهة باب جيرون .

وفي سنة ٥٧٠ أصابه حريق جزئي آخر ، حين احترقت مدرسة الكلاسة وامتدت النار الى مئذنة العروس فاحترقت .

وفي سنة ٦٤٦ احترقت سلالم المنارة الشرقية والبيوت التي في أسفلها وتضعضعت .

وفي سنة ٦٨١ كان حريق جزئي آخر ، اذ احترق سوق اللبادين وسوق جيرون فامتدت النار الى حيطان الجامع ووصلت الى قسم من السقف .

وفي سنة ٧٤٠ كان الحريق الكبير في دمشق ، فأكلت النار أسواقا برمتها وكانت خسائر فادحة في الاموال ، ووصلت النار الى الجامع فاحترقت المئذنة الشرقية وقسم من الجانب الشرقي .

وأصابه حريقان جزئيان سنة ١٠٦٤ وسنة ١١٣١ .

وكان الحريق الثاني الذي شمل المسجد كله هو الحريق الاخير سنة ١٣١١ وسيأتي حديثه.

أما الزلازل التي تتابعت على المسجد فمنها :

زلزال سنة ١٣١ الذي انشق منه سقف المسجد على طوله .

وفي سنة ٢٣٣ كان زلزال شديد أسقط المنارة فانهالت حجارتها على المسجد وخربت ربعه وتراكمت فيه كأنها جبل .

وفي سنة ٥٥٢ كانت زلزلة عظيمة أسقطت كثيراً مما كان قد بقي من فصوص الفسيفساء .

وفي سنة ٥٩٧ كانت أشد زلزلة على الاموي إذ أسقطت قسماً من المنارة الشرقية وتشققت منها قبة النسر وقيل أنها سقطت بعد ذلك على الناس .

وزلزال سنة ٧٠٢ الذي تشققت منه بعض جدران الجامع .

وزلزال سنة ١١٧٣ الذي سقطت منه قبة عائشة وتخرب بعض المسجد .

اصلاحات في الأموي

أما الاصلاحات الكبرى فيه فمنها :

انها جددت عمارة الحائط الشمالي سنة ٥٠٣ أيام المستظهر العباسي بأمر الوالي طغتكين .

وسنة ٧٢٨ نزع الرخام عن الجدار القبلي من الجهة الغربية فوجد فيه خلل فحضر تنكز نفسه ومعه القضاة والخبراء وتقرر هدمه واصلاحه واستأذن السلطان فأذن له ، فعمره واستنفر له الناس ، فتطوعوا للعمل وأخذوا له حجارة وجدوها في أصل المنارة الغربية المزالة عند الغزالية ، فتمت العمارة في أقل من ستة أشهر . وفي سنة ٧٢٩ كمل ترميم الحائط القبلي .

وفي سنة ٧٣٠ رمم الجانب الشرقي حتى صار كالغربي .

القبة

قبة النسر جددت سنة ٤٧٥ وسقفت المقصورة والطاقات والاركان الاربعة في عهد نظام الملك وزير ملكشاه السلجوقي .

وفي سنة ٥٧٥ جدد صلاح الدين ركنين من القبة .

وفي شوال سنة ٦٠٢ أصلحت عدة من دعائم القبة من جهة الشمال .

وفي سنة ٦١١ أسندت قبة النسر بأربعة أوتاد من الخشب طول كل منها ٣٢ ذراعاً بذراع العمال جيء بها من بساتين الغوطة .

وفي سنة ٦٧٨ جددت أربعة دعائم في قبة النسر من ناحية الغرب .

أما القبة القائمة الآن فهي والحرم كله من بناء أهل الشام بعد الحريق الاخير. كما سيأتي .

المآذن

أما المآذن فقد كان في الزوايا الاربع قبل أن يصير جامعاً أربع صوامع ، فتهدمت الصومعتان الشماليتان من القديم ولم تجددا وبقي أساسهما ، وأخذ من حجارة الاساس في الصومعة الشمالية الغربية لبناء الجدار القبلي سنة ٧٢٨ . ولما بنى الوليد المسجد رفع فوق الصومعتين الاماميتين المئذنتين (الغربية والشرقية) وبنى مئذنة وسط الجدار الشمالي هي مئذنة العروس وجعلها مذهبة كلها من أعلاها الى أسفلها .

واحترقت المئذنة الشمالية (العروس) في حريق مدرسة الكلاسة في المحرم سنة ٥٧٠ فجددها السلطان صلاح الدين .

وفي سنة ٦٤٦ احترق القسم الاعلى من المنارة الشرقية وسلالمها والغرف التي في أسفلها ، وأعادها الملك الصالح الايوبي . وفي أسفل المنارة الشرقية بيت طهارة وغرفتان . أما الغربية فبأسفلها قاعة بلا ماء جددها السلطان قايتباي المتوفي سنة ٩٠١ بعد خرابها في حرب تيمورلنك وكان أول يوم أذن فيها بعد تعطيلها وتجديدها ٢ رمضان ٨١٤ . وأقيم في ذي القعدة ٨١٤ درابزين مئذنة العروس .

وسنة ٨١٦ فرغ من بناء الغربية وكان قد تخرب رأسها في حرب تيمورلنك.
وقد جدد النصف الاعلى من مئذنة العروس من نحو خمسين سنة .
ونقض في أيامنا النصف الاعلى من المئذنة الشرقية لخلل ظهر فيه وأعيد
كما كان .

المشاهد

وفي سنة ٥٩٦ جدد مشهد عروة وفتح بعد ما أغلق مدة (وربما سمي مشهد
ابن عروة وكان يسمى قديماً مشهد علي ويدعى اليوم مشهد اليافي وهو اليوم
للوضوء) .

وفي سنة ٦٦٨ جدد الملك الظاهر مشهد زين العابدين (مشهد الحسين) بعدما
استولى عليه الخراب ، وطرد من كانوا يتخذونه ملجأ إلا واحداً منهم رأى فيه
الصلاح والعبادة ، وأغلق مدة في أيام العثمانيين وأهمل فجدده الوالي سليمان
باشا وفتحه .

وفي سنة ٦٩٨ جدد مشهد عثمان (المتخذ الآن بهواً للاستقبال) باشراف ناظر
الجامع الناصر بن عبد السلام وجعل له امام راتب .

الرخام والفيفاء

في سنة ٦٣٠ جدد ترخيم باب الجامع الشرقي .

جدد الظاهر [1] نحو سنة ٦٦٨ كثيراً من الرخام في الحائط الشمالي
وكثيراً من الفسيفساء في الجدار الغربي ، وأصلح رخامه ورمم وجلب

(١) وسيأتي نص فيه تفصيل ذلك .

له الرخام من كل جهة فكان أحسن مما عمل قديماً وأنفق في ذلك عشرين الف دينار . وفي سنة ٧٢٧ كمل ترخيم الحائط الشمالي بأمر تنكز وعهد النـــاظر ابن المرحل[١].

وفي سنة ٧٣٠ جمعت فصوص الفسيفساء الباقية لتجعل في الجدار القبلي للصحن في عهد ابن المرحل ناظر الجامع وباذن نائب السلطنة تنكز والقاضي الاخنائي الشافعي . ولكن ذلك لم ينفذ كما يظهر .

وفي سنة ٧٤٠ جدد الناصر بن قلاوون ترخيم مشهد أبي بكر .



(١) ويقال له ابن الوكيل ولي مشيخة دار الحديث مدة .

من أخبار الأموي

وفي رمضان سنة ٤١١ أقيم في الصحن عمودان من الشرق والغرب جعلا للتنوير المسجد وذلك باذن قاضي البلدة وهما موجودان الى الآن .

وفي سنة ٧٣٦ وجد حائط دار الخطابة متشققاً فخرب ووجد فيه حجارة كبار وظهر باب كبير مليح له اسكفة [١] وجوانب والجميع مخرب فنقلت الحجارة الكبار الى باب الفرج فاستعين بها في بنائه .

وفي سنة ٦٩٩ نظر الملك الظاهر في أوقاف الجامع وما يصرف منها لأرباب الرواتب (فمن كان منهم مستغنياً وليس به انتفاع في علم أبطله ، ومن كان منهم ذا حاجة ولم يكن لديه علم رتب له على بيت المال ما يقوم به ، وصرف ما كان مقرراً لمن أبطله في مصالح الجامع وفيمن للمسلمين الانتفاع بعلمه ، ورتب فيه مصحفاً يقرأ فيه بعد صلاة الصبح تحت قبة النسر ، وأجرى على القارىء فيه كل شهر شيئاً معلوما . وكان بصحن الجامع الأموي حواصل للمنجنيقات ، وحواصل للامراء فيها أشياء من خيم وغيرها فأمر بازالتها ، فاتسع الجامع وازداد رونقه ، وتطلب كتب الوقف ، وكانت قد اهمل النظر فيها ، وأجرى الوقوف على شروطها من واقفيها ، وانما كان المتولي للنظر فيها يعمل بمقتضى رأيه في منعه واعطائه ، فحملت اليه بعدما شق على الباحث عنها وجودها ، فوجدها قد تمزق القديم منها ، وما كان وقفه الملك العادل نور الدين محمود ومن بعده من الملوك قد كادت كتبها تتلف ، فأمر باحياء خطوطها واثباتها عند سائر القضاة ، واجتهد فيها حسب ما اقتضته آراؤه السعيدة وأفعاله الرشيدة ، وكذلك فعل في وقف البيمارستان الكبير ، وليس ذلك بمستنكر

(١) جمع اسكف واسكف الباب اعلاه واسفله وهو من العامي الفصيح .

من خلائقه في اقامة منار الاســـلام ، ورفع من خفضه البخوت على التخوت من العلماء الاعلام ، وكانت ســـائر الوقوف المرسلة على ما وقفت عليه مضـافة الى وقف الجامع الاموي ، وكانت لا تصرف في أربابها ، وإنما تصرف في مرتب الجامع ، فافردهـــا منه ، وولاها من يصرفها على شروط من وقفها ، وأثبت كتبها كما فعل فيما عداهـــا من الاوقاف الجـامعية والبيمارستانية).

وفي سنة ٨٣٠ كشفوا عن رؤوس الجسور في الجامع فوجدوا بضعة عشر جسراً تآكلت فاصلحت .

وفي أيام الملك النـاصر الايوبي فرض من ماء قنوات زيادة على ماء باناس (بانياس) للاموي مقدار ١٧ اصبعا .



الأموي في أواخر القرن السادس الهجري

زار ابن جبير الجامع الاموى في أواخر القرن السادس ووصفه في رحلته وصفاً دقيقاً صادقاً ، رأيت أن أثبته بحروفه في هذه الرسالة ، وأثبت بعده حديثه عن صعوده الى قبة المسجد .

مساحته :

قال ابن جبير : ان ذرعه في الطول من الشرق الى الغرب مائتا خطوة وهي ثلاثمائة ذراع وذرعه في السعة من القبلة الى الجوف مائة خطوة وخمس وثلاثون خطوة ، وهي مائتا ذراع ، فيكون تكسيره من المراجع الغربية أربعة وعشرون مرجعاً وهو تكسير مسجد رسول الله ﷺ غير أن الطول في مسجد رسول الله ﷺ من القبلة الى الشمال وبلاطاته [1] المتصلة بالقبلة ثلاث مستطيلة من الشرق الى الغرب سعة كل بلاطة منهـا ثمان عشرة خطوة والخطوة ذراع ونصف .

أعمدته :

وقد قامت على ثمانية وستين عموداً منهـا أربع وخمسون سارية وثماني أرجل جصية تتخللها . واثنتان مرخمتان ملصقتان معها في الجدار الذي يلي الصحن وأربع أرجل مرخمة أبدع ترخيم مرصعة بفصوص من الرخام ملونة قد نظمت خواتيم وصورت محاريب وأشكالاً غريبة قائمة في البلاط الاوسط تقل قبة الرصاص مع القبة التي تلي المحراب ، سعة كل رجل منها ستة عشر شبراً ، وطولها عشرون شبراً ، وبين كل رجل ورجل في الطول سبع عشرة خطوة وفي العرض ثلاث عشرة خطوة ، فيكون دور كل رجل منها اثنين وسبعين شبراً .

---

(١) ما بين كل صفين من الاعمدة كانوا يسمونه بلاطة وتسمى اليوم (معزبة) .

أروقة الصحن :

ويستدير بالصحن بلاط من ثلاث جهاته ، الشرقية والغربية والشمالية ، سعته عشر خطا وعدد قوائمه سبع واربعون منها أربع عشرة رجلاً من الجص ، وسائرها سوار[1]، فيكون سعة الصحن حاشا المسقف القبلي والشمالي مائة ذراع وسقف الجامع كله من الخارج الواح رصاص .

وأعظم ما في هذا الجامع المبارك قبة الرصاص المتصلة بالمحراب سامية في الهواء عظيمة الاستدارة قد استقل بها هيكل عظيم هو غارب لها يتصل من المحراب الى الصحن وتحته ثلاث قباب[2] قبة تتصل بالجدار الذي الى الصحن وقبة تتصل بالمحراب وقبة تحت قبة الرصاص بينهما .

صورة النسر :

والقبة الرصاصية قد أغصت الهواء ، فاذا استقبلتها أبصرت منظراً رائعاً ومرأى هائلاً يشبهه الناس بنسر طائر ، كأن القبة رأسه والغارب صدره ونصف جدار البلاط عن يمين ونصف عن شمال جناحاه ، ووسعة هذا الغارب من جهة الصحن ثلاثون خطوة ، فهم يعرفون هذا الموضع من الجامع بالنسر ، لهذا التشبيه الواقع عليه . ومن أي جهة استقبلت البلد ترى القبة في الهواء منيفة على كل علو كأنها معلقة من الجو .

شمسياته :

والجامع المكرم مائل الى الجهة الشمالية من البلد وعدد شمسياته[3] الزجاجية المذهبة الملونة ، أربع وسبعون منها في القبة التي تحت قبة الرصاص عشر ، وفي القبة المتصلة بالمحراب وما يليها من الجدار أربع عشرة شمسية وفي طول الجدار عن يمين المحراب ويساره أربع وأربعون وفي القبة المتصلة بجدار الصحن ست وفي ظهر الجدار الى الصحن سبع وأربعون شمسية .

---

(١) السواري جمع سارية (٢) وهي غير موجودة اليوم (٣) أي شبابيكه .

المقاصير :

وفي الجامع المكرم ثلاث مقصورات ، مقصورة الصحابة رضي الله عنهم ، وهي أول مقصورة وضعت في الاسلام وضعها معاوية بن ابي سفيان رضي الله عنهما وبازاء محرابها المقاصير عن يمين مستقبل القبلة باب حديد كان يدخل معاوية رضي الله عنه الى المقصورة منه الى المحراب وبازاء محرابها لجهة اليمين مصلى أبي الدرداء رضي الله عنه وخلفها دار معاوية رضي الله عنه وهي اليوم سماط عظيم للصفارين يتصل بطول جدار الجامع القبلي ، ولا سماط أحسن منظراً منه ولا أكبر طولا وعرضاً ، وخلف هذا السماط على مقربة منه دار الخيل برسمه وهي اليوم مسكونة وفيها مواضع للكمادين وطول المقصورة الصحابية المذكورة أربعة وأربعون شبراً وعرضها نصف الطول ويليها لجهة الغرب في وسط الجامع المقصورة التي احدثت عند اضافة النصف المتخذ كنيسة الى الجامع حسبما تقدم ذكره ، وفيها منبر الخطبة ومحراب الصلاة ، وكانت مقصورة الصحابة أولاً ، في نصف الخط الاسلامي من الكنيسة ، وكان الجدار حيث أعيد المحراب في المقصورة المحدثة ، فلما أعيدت الكنيسة كلها مسجداً صارت مقصورة الصحابة طرفاً في الجانب الشرقي ، وأحدثت المقصورة الأخرى وسطا ، حيث كان جدار الجامع قبل الاتصال . وهذه المقصورة المحدثة أكبر من الصحابية .

الزوايا :

وبالجانب الغربي بازاء الجدار مقصورة أخرى هي برسم الحنفية يجتمعون فيها للتدريس وبها يصلون وبازائها زاوية محدقة بالأعواد كأنها مقصورة صغيرة وبالجانب الشرقي زاوية أخرى على هذه الصفة هي كالمقصورة كان وضعها للصلاة فيها أحد أمراء الدولة التركية وهي لاصقة بالجدار الشرقي وبالجامع المكرم عدة زوايا على هذا الترتيب يتخذها الطلبة للنسخ والدرس والانفراد عن ازدحام الناس وهي من جملة مرافق الطلبة .

أبواب الصحن :

وفي الجدار المتصل بالصحن المحيط بالبلاطـــات القبلية عشرون بابا متصلة بطول الجدار قد علتها أقواس جصية مخرمة كلها على هيئة الشمسيات فتبصر العين من اتصالها أجمل منظر وأحسنه والبلاط المتصل بالصحن المحيط بالبلاطات من ثلاث جهات على أعمدة وعلى تلك الأعمدة أبواب مقوسة تقلهـــا أعمدة صغار تطيف بالصحن كله .

الشاميون والجامع :

ومنظر هذا الصحن من أجمل المناظر وأحسنها ، وفيه مجتمع أهل البلد ، وهو متفرجهم ومنتزههم كل عشية ، تراهم فيه ذاهبين وراجعين ، من شرق الى غرب ، من باب جيرون الى باب البريد فمنهم من يتحدث مع صاحبه ومنهم من يقرأ ، لا يزالون على هذه الحال من ذهاب ورجوع الى انقضاء صلاة العشاء الآخرة ثم ينصرفون ولبعضهم بالغداة مثل ذلك ، وأكثر الاحتفال انما هو بالعشي فيخيل لمبصر ذلك أنها ليلة سبع وعشرين من رمضان المعظم لما يرى من احتفال النـــاس واجتماعهم ، لا يزالون على ذلك كل يوم وأهل البطالة من الناس يسمونهم (الحراثين)

المـآذن :

وللجامع ثلاث صوامع واحدة من الجانب الشرقي وهي كالبرج المشيد تحتوي على مساكن متسعة وزوايا فسيحة راجعة كلها الى اغلاق ، يسكنها أقوام من الغرباء أهل الخير والبيت الأعلى منها كان معتكف أبي حامد الغزالي رحمه الله ، وثانية بالجانب الغربي على هذه الصفة ، وثالثة بالجانب الشمالي على الباب المعروف بباب الناطفيين (باب العمارة) .

قباب الصحن :

وفي الصحن ثلاث قباب إحداها في الجانب الغربي منه وهي أكبرهـا وهي

قائمة على ثمانية أعمدة من الرخام مستطيلة كالبرج مزخرفة بالفصوص والأصبغة الملونة يقال انها كانت مخزناً لمال الجـــامع وله مال عظيم من خراجات ومستغلات تنيف (على ما ذكر لنا) على الثمانية آلاف دينـار في السنة وهي خمسة عشر الف درهم .

وقبة أخرى صغيرة في وسط الصحن مجوفة مثمنة من الرخام قد الصق أبدع الصاق قائمة على أربعة أعمدة صغار من الرخام وتحتها شباك حـديد مستدير وفي وسطه أنبوب من النحاس يمج الماء الى علو فيرتفع وينثني كأنه قضيب لجين يشره الناس لوضع أفواههم فيه للشرب استظرافاً واستحساناً ويسمونه قفص المـاء . والقبة الثالثة في الجانب الشرقي قائمة على ثمانية أعمدة على هيئة القبة الكبيرة، لكن أصغر منها .

المشاهد :

وفي الجانب الشمالي من الصحن ، باب كبير يفضي الى مسجد كبير في وسطه صحن قد استدار فيه صهريج من الرخام كبير يجري الماء فيه دائماً من صفحة رخام أبيض مثمنة قد قامت وسط الصهريج على رأس عمود مثقوب يصعد الماء منه اليها . وفي الجانب الشرقي من الصحن باب يفضي الى مسجد من أحسن المساجد وأبدعها وضعاً ، وأجملها بناء ، يزعمون أنه مشهد لعلي بن أبي طالب . يقابله في الجهـة الغربية في زاوية البلاط الشمالي من الصحن موضع هو ملتقى آخر البـلاط الشمالي مع أول البلاط الغربي مجلل بستر في أعلاه وأمامه ستر ايضاً منسدل يزعم أكثر الناس أنه موضع لعائشة رضي الله عنها ، وأنها كانت تسمع الحديث فيه وذلك كله لا أصل له . وانما ذكرناه لشهرته في الجامع .

زخارف الجامع :

وكان هذا الجامع المبارك ظاهراً وباطناً ، منزلا كلـه بالفصوص المذهبـة ،

مزخرفاً بأبدع زخاريف البناء المعجز الصنعة فأدركه الحريق مرتين ، فتهدم وجدد ، وذهب أكثر رخامه فاستحال رونقه ، فأسلم مافيه اليوم قبلته مع الثلاث قباب المتصلة بها .

القبلة والمحراب:

ومحرابه من أعجب المحاريب الاسلامية ، حسناً وغرابة صنعة ، يتقد ذهباً كله وقد قامت في وسطه محاريب صغار متصلة بجداره تحفها سوريات مفتولات فتل الاسورة كأنها مخروطة لم ير شيء أجمل منها ، وبعضها حمر كأنها مرجان ، فشأن قبلة هذا الجامع المبارك مع ما يتصل بها من قبابه الثلاث واشراق شمسياته المذهبة الملونة عليه واتصال شعاع الشمس بها وانعكاسه الى كل لون منها حتى ترتمي الابصار منه أشعة ملونة يتصل ذلك بجداره القبلي كله عظيم لا يلحق وصفه ولا تبلغ العبارة بعض ما يتصوره الخاطر منه والله يعمره بشهادة الاسلام وكلمته بمنه . وفي الركن الشرقي من المقصورة الحديثة في المحراب خزانة كبيرة فيها مصحف من مصاحف عثمان رضي الله عنه وهو المصحف الذي وجه به الى الشام وتفتح الخزانة كل يوم اثر الصلاة فيتبرك الناس بلمسه وتقبيله ويكثر الازدحام عليه .

أبواب الجامع :

وله أربعة أبواب (باب) قبلي ويعرف بباب الزيادة وله دهليز كبير [1] متسع له أعمدة عظام وفيه حوانيت للخرزيين وسواهم ، وله مرأى رائع ومنه يفضي الى داخل دار الخيل،وعن يسار الخارج منه سماط الصفارين وهي كانت دار معاوية رضي الله عنه وتعرف بالخضراء .

(وباب) شرقي هو أعظم الابواب ، ويعرف بباب جيرون .

و(باب) غربي ويعرف بباب البريد، و(باب) شمالي ويعرف بباب الناطفيين، وللشرقي والغربي والشمالي أيضاً من هذه الابواب ، دهاليز متسعة ، ويفضي كل دهليز منها الى باب عظيم كانت كلها مداخل الكنيسة فبقيت على حالها .

---

(١) وليس له اليوم اثر ظاهر اما الدهاليز الثلاثة الاخرى فآثارها ظاهرة .

الدهليز الشرقي

وأعظمها منظراً الدهليز المتصل بباب جيرون ، يخرج من هذا الباب الى بلاط طويل عريض ، قد قامت أمامه خمسة ابواب مقوسة لها ستة أعمدة طوال ، وفي وجه اليسار منه مشهد كبير حفيل كان فيه رأس الحسين بن علي رضي الله عنهما ثم نقل الى القاهرة وبازائه مسجد صغير ينسب لعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ، وبذلك المشهد ماء جار ، وقد انتظمت أمام البلاط أدراج ينحدر عليها الدهليز وهو كالخندق العظيم يتصل الى باب عظيم الارتفاع ينحسر الطرف دونه سمواً ، وقد حفته أعمدة كالجذوع طولا وكالاطواد ضخامة ، وبجانبي هذا الدهليز أعمدة قد قامت عليها شوارع مستديرة فيها الحوانيت المنتظمة للعطارين وسواهم ، وعليها شوارع أخرى مستطيلة فيها الحجر والبيوت للكراء مشرفة على الدهليز وفوقها سطح يبيت به سكان الحجر والبيوت .

الفوارة

وفي وسط الدهليز حوض كبير مستدير من الرخام ، عليه قبة تقلها أعمدة من الرخام ، ويستدير باعلاها طرة من الرصاص واسعة مكشوفة للهواء ، وفي وسط الحوض الرخامي أنبوب صفر يزعج الماء بقوة فيرتفع الى الهواء أزيد من القامة ، وحوله أنابيب صغار ترمى الماء الى علو فيخرج عنها كقضبان اللجين ، فكأنها أغصان تلك الدوحة المائية ومنظرها أعجب وأبدع من أن يلحقه الوصف .

الساعة

وعن يمين الخارج من باب جيرون في جدار البلاط الذي أمامه غرفة ولها هيئة طاق كبير مستدير فيه طيقان صفر فتحت أبوابا صغاراً على عدد ساعات النهار ، وقد دبرت تدبيرا هندسيا ، فعند انقضاء ساعة من النهار تسقط صنجتان من صفر من فم بازيين مصورين من صفر قائمين على طاستين من صفر

تحت كل واحد منهما طاستين احداهما تحت أول باب من تلك الابواب ، والثانية تحت آخرها ، والطاستان مثقوبتان فعند وقوع البندقتين فيهما تعودان داخل الجدار الى الغرفة وتبصر البازيين يمدان أعناقهما بالبندقتين الى الطاستين ويقذفانهما بسرعة بتدبير عجيب تتخيله الاوهام سحراً ، وعند وقوع البندقتين في الطاستين يسمع لهما دوي وينغلق الباب الذي هو لتلك الساعة للحين بلوح من الصفر ، لايزال كذلك عند كل انقضاء ساعة من النهار ، حتى تنغلق الابواب كلها وتنقضي الساعات . ثم تعود الى حالها الاول ولها بالليل تدبير آخر ، وذلك في أن في القوس المنعطف على الطيقان المذكورة اثنتا عشرة دائرة من النحاس ، مخرومة وتعترض في كل دائرة زجاجة من داخل الجدار في الغرفة مدبر ذلك كله منها خلف الطيقان المذكورة وخلف الزجاجة مصباح يدور به الماء على ترتيب مقدار الساعة فاذا انقضت عم الزجاجة ضوء المصباح وفاض على الدائرة أمامها شعاعها فلاحت للابصار دائرة محمرة ثم انتقل ذلك الى الاخرى حتى تنقضي ساعات الليل وتحمر الدوائر كلها وقد وكل بها في الغرفة متفقد لحالها درب بشأنها وانتقالها ، يعيد فتح الابواب وصرف الصنج الى موضعها وهي التي يسميها الناس المنجانة (١) .

الدهليز الغربي

ودهليز الباب الغربي فيه حوانيت البقالين والعطارين وفيه سماط لبيع الفواكه ، وفي أعلاه باب عظيم يصعد اليه على أبراج ، وله أعمدة سامية في الهواء ، وتحت الابراج سقايتان مستديرتان سقاية يميناً وسقاية يساراً ، لكل سقاية خمسة أنابيب ترمي الماء في حوض رخام مستطيل .

الدهليز الشمالي

ودهليز الباب الشمالي فيه زوايا على مساطب محدقة بالاعواد ، هي محاضر لمعلمي الصبيان ، وعن يمين الخارج في الدهليز خانقة مبنية للصوفية ، في

(١) وليس لها اثر اليوم .

وسطها صهريج يقال أنها كانت دار عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ، ولها خبر سيأتي ذكره بعد هـــذا ، والصهريج الذي في وسطهـا يجري الماء فيه ولها مطاهر يجري الماء في بيوتها ، وعن يمين الخارج أيضاً من باب البريد مدرسة للشافعية في وسطها صهريج يجري الماء فيه ، ولها مطاهر على الصفة المذكورة وفي الصحن بين القباب المذكورة عمودان متباعدان لهما رأســـان من الصفر مستطيلان قد خرما أحسن تخريم ، يسرجن ليلة النصف من شعبان فيلوحان كأنهما ثريتان مشتعلتان .

واحتفال أهل هذه البلدة بهذه الليلة المذكورة [1] أكثر من احتفالهم ليلة سبع وعشرين من رمضان المعظم .

القراء

وفي هذا الجامع المبارك مجتمع عظيم كل يوم إثر صلاة الصبح لقراءة سبع من القرآن دائماً ، ومثله إثر صـــلاة العصر لقراءة تسمى الكوثرية ، يقرؤون فيها من سورة الكوثر الى الخاتمة ، ويحضر في هذا المجتمع الكوثري كل من لا يجيد حفظ القرآن ، وللمجتمعين على ذلك اجراء كل يوم يعيش منه أزيد من خمسمائة انسان ، وهذا من مفاخر هذا الجامع المكرم ، فلا تخلو القراءة منه صباحا ولا مساء .

الحلقات والدروس

وفيه حلقات للتدريس للطلبة ، وللمدرسين فيها اجراء واسع ، وللمالكية زاوية للتدريس على الجانب الغربي يجتمع فيه المغاربة ولهم اجراء معلوم ، ومرافق هذا الجامع المكرم للغرباء وأهل الطلب كثيرة واسعة ، وأغرب ما يحدث به، أن سارية من سواريه هي بين المقصورتين القديمة والحديثـــة لها وقف معلوم يأخذه المستند اليه للمذاكرة والتدريس ، أبصرنا بها فقيهاً من أهل اشبيلية

---

(١) والاحتفال بها لا أصل له في الشرع .

يعرف بالمرادي ، وعند فراغ المجتمع السبعي من القراءة صباحاً يستند كل انسان منهم الى سارية ويجلس أمامه صبي يلقنه القرآن ، وللصبيان أيضـاً على قراءتهم جراية معلومة ، فأهل الجِدَة [١] من الآباء ينزهون أبناءهم عن أخذها ، وسائرهم يأخذونها ، وهذا من المفاخر الاسلامية ، وللايتام من الصبيان محضرة كبيرة بالبلد لها وقف كبير يأخذ منه المعلم له ما يقوم به وينفق منه على الصبيان ما يقوم بهم وبكسوتهم ، وهذا أيضاً من أغرب ما يحدث به من مفاخر هذه البـــلاد وتعليم الصبيان للقرآن بهذه البلاد المشرقية ، كلها انما هو تلقين ، ويعلمون الخط في الاشعار وغيرها تنزيهاً لكتاب الله عز وجل عن ابتذال الصبيان له بالاثبات والمحو ، وقد يكون في أكثر البلاد الملقن على حدة والمكتب على حدة، فينفصل من التلقين الى التكتيب،لهم في ذلك سيرة حسنة،ولذلك ما يتأتى لهم حسن الخط لأن المعلم له لا يشتغل بغيره ، فهو يستفرغ جهده في التعليم ، والصبي في التعلم كذلك ، ويسهل عليه لأنه بتصوير يحذو حذوه .

مطاهر الجامع :

ويستدير بهذا الجامع المكرم أربع سقايات ، في كل جامع سقاية ،كل واحدة منها كالدار الكبيرة محدقة بالبيوت الخلائية ، والماء يجري في كل بيت منها وبطول صحنها حوض من الحجر مستطيل ، تصب فيه عـــدة أنابيب منتظمة بطوله ، واحدى هذه السقايات في دهليز باب جيرون وهي أكبرها ، وفيهـا من البيوت نيف عن الثلاثين ، وفيها زائداً على السقاية المستطيلة مع جدارها حوضان كبيران مستديران يكادان يمسكان لسعتهما عرض الدار المحتوية على هذه السقاية ، والواحد بعيد عن الآخر ، ودور كل واحـد منهما نحو الاربعين شبراً والمـاء نابع فيهما . والثانية [٢] في دهليز باب الناطفيين بازاء المعلمين . والثالثة عن يسار الخارج من باب البريد . والرابعة عن يمين الخارج من باب الزيادة .

---

(١) أي السعة في المال (٢)هذه قد اندثرت والثلاث الاخر باقيات .

قبر يحيى :

وفيه مشهد رأس يحيى بن زكريا عليه السلام وهو مدفون بالجامع المكرم في البلاط القبلي قبالة الركن الأيمن من المقصورة الصحابية ، رضي الله عنهم . وعليه تابوت خشب معترض من الاسطوانة وفوقه قنديل كأنه من بلور مجوف ، كأنه القدح الكبير ، لا يدرى أمن زجاج عراقي أم صوري هو أم غير ذلك .

صعوده إلى القبة

ومن أعظم ماشاهدناه من مناظر الدنيا الغريبة الشأن ، وهيا كلها الغريبة البنيان المعجزة الصنعة والاتقان ، والمعترف بوصفها بالتقصير ، لسان كل بيان ، الصعود الى أعلى قبة الرصاص المذكورة في هذا التقييد القائمة وسط الجامع المكرم ، والدخول في جوفها ، واجالة لحظ الاعتبار في بديع وضعها مع القبة التي في وسطها كأنها كرة مجوفة داخلة في وسط كرة أخرى أعظم منها .

صعدنا اليه في جملة من الأصحاب المغاربة ، ضحوة يوم الاثنين الثامن عشر لجمادى الأولى سنة ٥٨٠ من مرقى في الجانب الغربي من بلاط الصحن ، كان صومعة في القديم ، وتمشينا على سطح الجامع المكرم وكله ألواح رصاص منتظمة ، كما تقدم الذكر لذلك ، وطول كل لوح أربعة أشبار وعرضه ثلاثة أشبار ، وربما اعترض في الألواح نقص أو زيادة ، حتى انتهينا الى القبة المذكورة ، فصعدنا اليها على سلم منصوب والريح تكاد تطير بنا ، فحبونا في الممشى المطيف بها وهو من رصاص وسعته ستة أشبار فلم نستطع القيام عليه لهول الموقف فيه ، فأسرعنا الولوج الى جوف القبة ، على أحد شراجيبها ، المفتحة في الرصاص ، فأبصرنا مرأى تحار فيه العقول وتقف دون ادراكه هيبة وصف الأفهام ، وجلنا على فرش من الخشب العظام ، حول القبة الصغيرة الداخلة في جوف الرصاصية على الصفة التي ذكرناها ، ولها طيقان يبصر منها الجامع ومن فيه ، فكنا نبصر

الرجال فيه كأنهم الصبيان وهذه القبة مستديرة كالكرة ظاهرها من خشب قد شد بأضلاع من الخشب الضخام ، موثقة بمناطق من الحديد ينعطف كل ضلع عليها كالدائرة ، وتجتمع الاضلاع كلها في مركز دائرة من الخشب أعلاها ، وداخل هذه القبة وهو مايلي الجامع المكرم خواتيم من الخشب منظم بعضها ببعض قد اتصلت اتصالا عجيباً ، وهي كلها مذهبة بأبدع صنعة من التذهيب مزخرفة التلوين بديعة القرنصة يرتمى الابصار شعاع ذهبها ، وتتحير الالباب في كيفية عقدها ووضعها لافراط سموها .

أبصرنا من تلك الخواتيم الخشبية ، خاتماً مطرحا جوف القبة ، لم يكن طوله أقل من ستة أشبار في عرض أربعة وهي تلوح في انتظامها للعين كأن دورة كل واحد منها شبر أو شبران ، الغاية لعظم سموها . والقبة محتوية على هذه القبة المذكورة ، وقد شدت أيضاً بأضلاع عظيمة من الخشب الضخام موثقة الاوساط بمناطق الحديد وعددها ثمان وأربعون ضلعاً ، بين كل ضلع وضلع ، أربعة أشبار ، قد انعطفت انعطافاً عجيباً ، واجتمعت أطرافها في مركز دائرة من الخشب ، أعلاها ، ودور هذه القبة الرصاصية ثمانون خطوة وهي مائتا شبر وستون شبراً والحال فيها أعظم من أن يبلغ وصفها . انما هذا الذي ذكرناه ندبة يستدل بها على ماوراءها وتحت الغارب المستطيل المسمى النسر الذي تحت هاتين القبتين مدخل عظيم هو سقف للمقصورة بينه وبينها سماء خاص مزينة ، وقد انتظمت فيه من الخشب ما لا يحصي عدده ،وانعقد بعضها ببعض ، وتقوس بعضها على بعض ، وتركبت تركيباً هائلاً منظره ، وقد أدخلت في الجدار كله دعائم القبتين المذكورتين ، وفي ذلك الجدار حجارة كل واحد منها يزن قناطير مقنطرة، لا تنقلها الفيلة ، فضلاً عن غيرها ، فالعجب كل العجب من تطليعها الى ذلك الموضع المفرط السمو ، وكيف تمكنت القدرة البشرية لذلك ، فسبحان من ألهم عباده الى هذه الصنائع العجيبة ومعينهم على الثاني لما ليس موجوداً في طبائعهم

البشرية ومظهر آياته على أيدى من يشاء من خلقه لا إله سواه . والقبتان على قاعدة مستديرة من الحجارة العظيمة ، قد قامت فوقها أرجل قصار ضخام من الحجارة الصم الكبار وقد فتح بين كل رجل ورجل شمسية واستدارت الشمسيات باستدارتها ، والقبتان في رأي العين واحدة . وكنينا عنها باثنتين لكون الواحدة جوف الأخرى والظاهر منها قبة الرصاص .

ومن جملة عجائب ما عايناه في هاتين القبتين أننا لم نجد فيهما عنكبوتاً ناسجاً ، على بعد العهد من التفقد لهما من أحد ، والتعهد لتنظيف مساحتها . والعنكبوت في أمثالها موجود كثير ، وقد كان حقق عندنا ان الجامع المكرم لا تنسج فيه العنكبوت ولا يدخله الطير المعروف بالخطاف .

وقد تقدم ذكرنا لذلك في هذا التقييد فانصرفنا منحدرين وقد قضينا عجباً عجابا من هذا المنظر العظيم .

الأموي في القرن الثامن

وقد زار المسجد الرحالة ابن بطوطة ، في أوائل القرن الثامن ، ووصف المسجد ، وليس في وصفه اختلاف كبير عن وصف ابن جبير .



الحريق الأخير

بردى

أجدادنا الاولون كانوا أهل حزم وعزم ، وكانوا أصحاب فكر وبيان ، فكتبوا تاريخهم كله ، وسجلوا أمجادهم ومعايبهم ، وأخبار جدهم وهزلهم ، فنحن نعرف عن القرون الاولى التي مر عليها أكثر من الف سنة كل شيء كأننا نعيش فيها ، ونجهل من أخبار القرون الاخيرة كل شيء ، لاسيما القرن الماضي. وهذا عجيب ولكنه الواقع .

وأنت اذا أردت أن تعرف قصة حريق الاموي مثلاً ، لم تجدها في تاريخ من التواريخ مع أن في دمشق مئات ممن شهدها بعينه .

لذلك اعتمدت في هذا الحديث على ما حدثني به استاذنا الاكبر الشيخ المعمر الجليل عبد المحسن أفندى الاسطواني ، وهو حفظه الله ، أعجوبة العجائب ، جاوز المئة [1] من السنين ولا يزال في حدة ذهنه وقوة ذاكرته ، وكثرة علمه ، وسرعة بادرته ، وحضور نكتته كما كان في شبابه . وعلى ما حدثني به الشيخ حمدي الحلبي حفيد علامة الشام الشيخ سعيد الحلبي ، وهو متولي الجامع الآن ومن أعلم الناس بتاريخه وأحواله . كما اعتمدت على ما كتب العلامة الاستاذ الشيخ جمال الدين القاسمي ومختار بك العظم رحمهما الله . وهو وصف مختصر جداً نشره الدكتور صلاح الدين المنجد .

وبعد فهذه هي القصة :

كانت ضحوة يوم السبت رابع ربيع الثاني سنة ١٣١١ هـ (أي من نحو سبعين

---

(١) جاوز الآن المئة والعشر ولا يزال ذهنه حاضراً ، وذاكرته قوية ، ولا يزال يرجع اليه ويستفتى مد الله في عمره .

سنة قمرية) ، وكانت دمشق آمنة مطمئنة والناس منصرفون الى أعمـــالهم في الاسواق المطيفة بالاموي ، والنساء في بيوتهن الحافة بالجامع ، فما راعهم إلا صريخ يصرخ ، كأنه النذير العريان : أن لقد احترق الاموي ، فترك التجار مخازنهم مفتوحة ووثبوا ينظرون ، وصعـــد النساء على السطوح ، وتراكض الناس من كل جهة ، واذا الدخان ينبعث من سقف الجامع ، ولم يكن في دمشق مصلحة اطفاء(وقد أنشئت على أثر الحادث)وحار الناس ماذا يصنعون ، فاستبقوا الى سجاد المسجد ومصاحفه يخرجون ما يصلون اليه منها ، وعمد بعضهم الى الماء يصبونه ، والى المعاول،علّهم يحصرون النار ،ولكن النار كانت أسرع منهم ، إذ كان خشب السقف قديماً جافا ، وعليه من الاصبغة والادهان طبقات ، فما ثم رائحة النار حتى التهب كله دفعة واحدة ، كأنما قد صب عليه البنزين ،وكانت الرياح في ذلك اليوم غربية شديدة ، فما مرت نصف ساعة حتى صار السقف كله شعلة واحدة ، وجعلت قطع النيران تتساقط من كل مكان ، فالتهب المسجد كله، ولم يعد يستطيع أحد أن يقترب منه ، فوقفوا ينظرون وكأن النار التي تأكل مسجدهم تأكل قلوبهم ، ولكن العجز أمسكهم وقيدهم ، وكانت عمد المسجد قديمة أكثرها مكسور ومربوط بأطواق الحديد ، فتشققت من النـــار ، ثم هوى البناء كله ، وزلزلت الارض ، وكانت ساعة من ساعات الهول ،وامتدت النار تسوقها الرياح الغربية الى سوق القباقبيـــة والقوافين وزقاق الحمراوى ، وانجلى الدخان عن الخراب الشامل ، لم يبق من الاموي إلا المشهدان عند باب البريد ورواق الصحن ، عدا الرواق الممتد بين باب النوفرة الى مشهد الحسين ، فقد ناله الحريق فتضعضع ، وأصاب الحريق المنارة الغربية .

وأمامي الآن صورة نشرها الدكتور المنجد للاموي بعد الحريق ، ما فيهـا إلا جدار الحرم الشمالي (من جهة الصحن) والواجهة المثلثـــة

العالية ، أما السقف كله والقبة فلم يبق منه أثر ، ذهب المسجد كله في ساعتين ونصف الساعة ، المسجد الذي أنفقت فيه الاموال والاعمار ، وعملت في بنائه الافكار والايدي ألفاً وثلاثمئة سنة ، ذهب كله في مئة وخمسين دقيقة فقط ، ذهب في سبيل نارجيلة .

ذلك ان عاملاً من العمال كان يصلح رصاص السقف ، في المعزبة الوسطى من الجهة الغربية ، فأعجبه المنظر ، وهاج في نفسه الشوق الى نفس دخان ، فجاء بنارجيلة وأوقد ناراً ليشعلها ، فأشعل النار في الاموي .

خلت دمشق من مسجدها ، ولكن ما خلت النفوس من ايمانها ، وحط سقفه وجدرانه ، ولكن ما حط فرض الصلاة عن الناس ، وماذا يضر المصلي ان هوت قبة المسجد وامحت روائعه ، وطمست نقوشه ، ومسجد محمد ﷺ الذي بني على التقوى ، والذي كان مشرق النور على الدنيا ما كانت له قبة ولا كانت فيه نقوش ، انما هو سقيفة من اللبن والخشب ، وماذا ان بقي بلا مسجد والارض كلها للمسلم مسجد ومصلى .

لذلك كانت الفاجعة في الاموي الضحى ، وأقيمت الصلاة في الاموي الظهر . أقيمت الصلاة ، أقامها العالم الورع الشيخ عبد الحكيم الافغاني في الصحن وراء البحرة والناس وراءه . فكانت النار لا تزال بقاياها في أرجاء المسجد ، وهم يركعون ويقولون : الله أكبر . الله أكبر من الجامع ، فاذا ذهب الجامع فالله باق ، والصلاة باقية ، لايشغل المؤمن عن صلاته شيء في الدنيا مهما كبر ، لان الصلاة لله ، والله أكبر .

صلوا في الصحن ، ثم عمدوا الى المشهد الغربي الذي بقي سالما ، فنقلوا اليه بعض مفروشات الجامع ، وأقاموا له منبراً صغيراً للخطابة ، وعمروا

سدة صغيرة للمؤذنين ، وصارت تقام الجمعة فيه ، وكان المشهد الثاني (المعروف اليوم بمشهد الغزي) وهو الآن بهو الاستقبال ، مستودعاً للوازم الجامع ، ففرغ ودفف وفرش وفتح بابه القبلي ، فصار المشهدان (القائمان على طرفي باب البريد) معدين للصلاة ، وكان المشهد الشرقي قد احترق كله ، ومشهد الحسين قد احترق بعضه، فبذل الناس المال والجهد لاصلاحهما، فجددا وأعدا للصلاة قبل حلول شهر رمضان .

ثم انصرف الناس الى تنظيف الجامع ، وكان من الانقاض المتراكمة كأنه تل عظيم ، وتناوبوا على تنظيفه ، يشتغل أهل كل محلة يوما ، يجيئون جميعاً كهولهم وشبابهم ، أغنياؤهم وفقراؤهم ، يعملون بأيديهم ايمانا واحتسابا ، ينقلون التراب والحجارة ، ويتسابق الاغنياء الى اطعامهم ، فيتكفل أغنياء الحي باعداد الطعام للعاملين ، فيتغدون في المسجد ، فكان ذلك مظهراً رائعاً للاخوة والبذل ، وغدا الناس كأنهم أسرة واحدة ، يعملون جميعاً في بيت الله، وينزلون ضيوفاً عليه ، حتى اذا نظف المسجد من الانقاض ، ألفت في كل حي لجنة لجمع المال لعمارة المسجد ، وهبت دمشق إحدى هباتها المؤمنة العجيبة ، وتزاحم الناس على البذل ، فمنهم من خرج عن ماله كله ، ومنهم من أعطى نصف ماله ، وكلٌ ساعد بعقله وبفنه وبصناعته ، والفقير عمل مجاناً بيده ، وأنتم تذكرون ماصنعت دمشق في أسبوع التسلح القريب ، فكبروا ذلك عشر مرات تروا ماصنعت دمشق لبناء الجامع .

وكان الكشف وقدرت نفقات البناء بسبعين الف ليرة ذهبية ، واذا نظرنا الى القوة الشرائية لكل ليرة وجعلنا الخبز مقياساً وحسبنا سعره يومئذ وسعره اليوم رأينا المبلغ يعادل عشرين مليون ليرة من نقد هذه الايام .

ونظروا فاذا الاعمدة التي كان يقوم عليها سقف الحرم قد تكسرت وفكروا في أعمدة جديدة ، واختلف الرأي فيها ، من أين يؤتى بها وكيف تنقل ،

ثم أخذوا برأي السيد عبد الله الحموي ، فقرروا أن تقطع الأعمدة من جبال المزة ، ولكن كيف يؤتى بها ؟

هنا تظهر عظمة هذا الرجل الذي لم يكن مهندساً ولم يكن متعلماً .

لقد عرض عليهم أن يعمل عربة مستطيلة واطية تجرها الثيران ، لها ملاقيط من تحتها فهي تلتقط العمود ، وتحمله من المزة الى المسجد ، وشكوا في ذلك ، فخبرهم انه رأى مثلها في مقاطع الحجارة في ايطاليا ، فأقروه على صنعها ، فصنعت بارشاده ، وصارت تحمل العمود الهائل من الأعمدة القائمة اليوم في الاموي وتأتي به يحف بها الناس والشباب بالعراضات والأهازيج .

ولما وصل العمود الأول وشكرت اللجنة للسيد الحموي ماصنع ، ضحك وقال لهم : أخبركم الآن بالحقيقة ، أنا لم أر مثل هذه العربة في ايطاليا ، ولا ذهبت اليها ولا الى غيرها ، ولكني خفت أن أقول لكم انها من اختراعي ، فلا تقبلوها مني. فزعمت اني رأيتها في ايطاليا .

وهذه العربة لا تزال موجودة ، أرجو أن توضع في المتحف ، لتعرض دليلاً على العبقرية الشامية .

وشرع في البناء سنة ١٣١٤ ﻫ ولم يبق في دمشق صاحب فن إلا وضع فنه في عمارة المسجد ، ولا عامل إلا قصر عمله على المسجد ، وكان يشتغل فيه كل يوم أكثر من خمسمئة عامل ، فما مرت سنتان حتى أنجز بناء النصف الشرقي من المسجد وفرش بالسجاد وعلقت فيه الثريات والمصابيح وأقيم حاجز من الخشب من غربيه ووضع المنبر الى جنب محراب المالكية ، وافتتح في رمضان سنة ١٣١٦ ﻫ في حفلة ضخمة حضرها الوالي والعلماء والوجهاء .

ثم بدىء بالقسم الآخر ، وكان أول ما بني منه محراب الحنفية ، وزخرفوه هذه الزخرفة التي ترى الآن ، وبلغت نفقات بناء المحراب كما خبرني الاستاذ

الاسطواني الف ليرة ذهبية ، وقد لام الناس اللجنة على البداءة به ، فاحتجت بأنه لو لم يبدأ به لما بني .

وتم بناء القسم الاوسط من المسجد في منتصف شعبان سنة ١٣١٨ .

وا كتمل البناء كله واحتفل بافتتاحه في ٢٨ جمادى الاولى سنة ١٣٢٠ بعد الحريق بتسع سنين فقط .

وبعد يا أيها القراء فان هذا المسجد العظيم الذي يقطع السياح نصف كرة الارض ليشاهدوه ويعجبوا من عظمته وجلاله ،وهذه القبة السامقة التي لا يطاولها بناء في دمشق ، بل تبدو العمارات معها كالصبية الصغار مع الرجل الطوال ، وهذا الزخرف وهذا الجمال ، كله من صنع أهل دمشق ، أنفقوا عليه من أموالهم ، وعملوه بأيديهم ، وان الذين هندسوه وعمروه كانوا جماعة من النجارين الشاميين الذين لم يدرسوا في مدرسة ولم ينالوا شهادة في الهندسة ، الحموي ومعاونوه والتوام وملص واخوانهم ، وان الذين نقشوه هذا النقش البارع الذي جاء على مثال النقش القديم وأربى عليه هم أولاد أبي نجيب الدهان الشامي العامي ، وانهم هم الذين صنعوا هذه الشبابيك العجيبة الثلاثة التي هي فوق المحراب، والثلاثة المقابلة لها .

لقد بنت دمشق هذا المسجد العظيم على قلة العلم يومئذ ، وضعف الادوات ، وفقد الآلات ، ليقوم دليلاً على ان الايمان والاخلاص يصنعان كل شيء .

فاذا شككتم في ان الايمان يعمل العجائب ويأتي بالخوارق ، فها كم قبة الاموي قائمة تنطق ، شاهدة بأن الايمان قوة تدحر القوي ، وكنز يزري بالكنوز .

ورحمة الله وتحياته وبركاته على كل من شارك بسلطانه أو بيده أو بفكره في إقامة هذا الصرح المبارك ، من لدن معاوية والوليد الى يوم الناس هذا ، وعلى كل من سيعمل فيه في الايام القادمات ، وجزاهم الله جميعاً خير الجزاء .

الاصلاحات الجديدة

تقرير من مهندس الاوقاف
السيد مكين المؤيد

ان الفترة التي تؤرخ لها الآن تنحصر فيما بين عام ١٩١٩ ميلادية وعام ١٩٥٩ أي ابتداء من انتهاء الحرب العالمية الاولى .

ويمكن تقسيمها الى ثلاث مراحل . المرحلة الاولى وتبتدىء من عام ١٩١٩ لغاية عام ١٩٤٠ ، والمرحلة الثانية وتبتدىء من عام ١٩٤١ لغاية عام ١٩٤٩ ، والمرحلة الثالثة وتبتدىء من عام ١٩٥٠ لغاية عام ١٩٥٩ .

المرحلة الاولى

جرت اصلاحات المرحلة الاولى بمعرفة دائرة الاوقاف واشراف القائم بالنظارة على الجامع . وقد بلغت تكاليف هذه الاصلاحات نحواً من الفي ليرة عثمانية ذهبية. ومن اهم الاعمال التي تمت خلال هذه المدة : تبليط باحتي مدخل بابي البريد والنوفرة الداخليين بالرخام . وترخيم جدران باب البريد ، وتركيب البلاط القاشاني ، وتبديل العمود الكبير في باحة الاموي في الجهة الشرقية الشمالية . واصلاح المنارة الغربية إذ رممت الدرابزينات وجدد الهلال النحاسي . وتركيب سطرين من القاشاني المنقول من قبة الوزير (أُقوش النجيبي) في السويقة ، فوق محراب الحرم الكبير يتضمنان آيات قرآنية من سورة الرحمن . ونزع الكلسة عن الفسيفساء واكمال النواقص في مدخل باب البريد والرواق

الغربي . وعمل مجـاري المـاء في الجملونات (سطح الحرم) من (بيتون) مسلح بدلاً من مجاري الرصاص التي كانت ترشح منها المياه الى خشب السقف . واصلاح الرخام المشقف في محراب الشافعي . وتبليط القسم الشرقي من أرض باحة الصحن ببلاط أحمر مزي .

المرحلة الثانية

اشتركت في الاصلاحات في هذه الفترة دائرة الاوقاف ومديرية الآثار وقـد بلغت تكاليفها مئة الف ليرة سورية تقريباً . وهذه أهم الاعمال التي تمت خـلال هذه الفترة :

في عام ١٩٤١ تم فك القسم العلوي من المثمن المتصدع من منارة سيدنا عيسى (أي الشرقية) ، واعادته مجدداً كالسابق ، وتم ترميم وتصليح وتـكحيل القسم السفلي من بقية المنارة ، وجددت الدرابزينـات الخشبية . وفي عام ١٩٤٢ تم اصلاح الفسيفساء الآيل للسقوط في قوس الزاوية الشمالية الغربية . ومن عام ١٩٤٣ لغاية عام ١٩٤٧ تمت الاعمال الآتية :

أ ـــ بعد تدعيم الجدران وتأمين الاخطار وتعليق الاقواس العلوية والسفلية في الباحة ، من جدار الرواق الشمالي لجهة الشرق . فك القسم الاول المتداعي المـائل .

ب ـــ فكت العضادة الحجرية المتصدعة ، والاقواس في الزاوية الشرقية ، وكشف سقف الرواق الخشبي . وفكت الاحجار العاطلة من أساسات الجدران.

ج ـــ أعيد البناء كما كان بعد ازالة الاحجار المفتتة والمتصدعة والعـاطلة ، وأعيدت العضادة والاقواس . وجرى تركيب العمود السفـلي الكبير مجـدداً بدلاً عن القديم البالي . كما جرى تبديل العمود العلوي الصغير مجـدداً بدلاً عن القـديم .

ثم فك القسم الثاني المتصدع من الجدار الشمالي المذكور . ثم أعيد بناؤه من جديد .

وأخيراً فك القسم الثالث من الجدار المذكور الواقع خلف الرواق عند بيت المؤذنين وأزيل القسم العاطل منه وأعيد مجدداً بعد ترميم وتصليح الاساسات .

ومن ١٩٤٨ الى ١٩٤٩ تمت الاصلاحات الآتية :

كشف قسم من الممر الذي عثر عليه تحت باحة باب النوفرة الخارجية وتحرر من الردم وأصلحت جدرانه وسقفه . وتم هدم الجدار الخارجي الواقع جنوبي مدخل النوفرة نظراً لتصدعه وأعيد بناؤه مجدداً . ثم جرى اصلاح الجـدار المقابل الواقع شمالي مدخل النوفرة خلف مشهد الحسين وتم تكحيله . ورممت الواجهة الخارجية لمدخل النوفرة وكحلت بالاسمنت . وأخـيراً جددت الاعمدة الاربعة المتصدعة في الزاوية الشمالية الغربية للرواق مع قواعدها .

المرحلة الثالثة

وتبتدىء من ١٩٥٠ الى نهاية ١٩٥٩ وأعمال هذه الفترة جرت بمعرفة مديرية الاوقاف في دمشق وتحت اشراف مديرية الآثار . وقد بلغت تكاليفها ٣٦٥ الف ليرة تقريباً . ومن أهم الاعمال التي تمت خلال هذه الفترة الاعمال الآتية : في عام ١٩٥٠ هدم جدار المشهد الشرقي للحرم (الشهير بالسفرجلاني) المتصدع من جراء الحريق وأعيد بناؤه مجـدداً مع تجديد أساساته ، ثم جرى تبليط أرض المشهد المذكور وأصلح محرابه وأنشىء به موضأ وخزان للمياه .

وفي عام ١٩٥١ فكت الاقواس الثلاثة العـاطلة في الرواق الشمالي القسم الشرقي منه ، وأبدل العمودان الحجريان العاطلان بعمودين كبيرين وتم تجديد الاساسات . ثم أعيدت الاقواس وما فوقها.وجرى تجديد البابين الخشبيين

في مدخل النوفرة وأعيدت الزخارف النحاسية وأكملت نواقصها، وجري تصليح الباب الكبير الوسطاني .

وفي عام ١٩٥٢ عملت تروس خشبية مزخرفة مع البلور الملون في قوس باب النوفرة ، وباب المسكية الكبيرين ، وأعيد سقف القسم المنتهي اصلاحه من الرواق الشمالي وذلك من خشب مجدد ، ورصاص أعيد صبه مجدداً مع الدهان الزياتي كالأصل ، وأعيد الفسيفساء الى الاقواس الثلاثة . وأعيد محراب مشهد الدخولية (الغزي) المتهدم من خيوط عربية رخامية كالسابق . وأعيد اصلاح المشقف في محراب المالكي ضمن الحرم .

وفي عام ١٩٥٣ فكت الاقواس العلوية المزدوجة الثلاثة في الرواق الشرقي وجرى تبديل العمودين الصغيرين العاطلين ثم أعيدت الاقواس كالسابق تماماً . ثم نزعت كلسة الجدران فيرواق مشهد الحسين من جهة الباحة وأصلحت أماكن العطل المتعددة وصبت عتبات النوافذ بالاسمنت وجدد منجورها ، وجرى تبليط أرض مشهد الوضوء .

وفي عام ١٩٥٤ أكمل نزع كلس جدران الرواق والاقواس والغيت نهائياً وأظهر الحجر الطبيعي بعد لقطه وتكحيل فواصله . ودهنت أسقف الأروقة بالدهان الزياتي ، وجدد باب العمارة الخشبي العاطق وأعيد اليه زخرفة النحاس وأكملت نواقصه . أصلحت عضادات الرواق الشمالي المنقوشة كالأصل ، وتم اصلاح مأذنة التوقيت بجانب منارة العروس ، وتم تبليط الباحة الخارجية أمام مدخل النوفرة من رخام وحجر أسود وشعيرة حجرية ، وجددت نوازل المطرية من الجهة الشرقية من بواري حديد عوضاً عن قساطل الفخار البالية ، وجرى تبديل عمود (الغرانيت) الكبير المتصدع والمقيد بطوق حديدي بعمود آخر نقل من جامع تنكز .

وفي عام ١٩٥٥ تم تبديل عمودين كبيرين عاطلين في الرواق الغربي بعمودين

(غرانيت) كالذي تم في عام ١٩٥٤ سابقاً أحدهما أخذ من أرض الصحن والثاني جلب من اللاذقية وجددت القواعد الحجرية لهذه الأعمدة بعد تجديد الاساسات ، وتم اصلاح فسيفساء بعض أقواس الرواق الغربي وأكملت نواقصه . وأكمل بناء القسم العلوي من الزاوية الشمالية الغربية من الرواق . وجدد السقف الخشبي العاطل من مشهد الوضوء وصب البيتون المسلح بظهر السطح ، ودهن السقف الخشبي المذكور بدهان زياتي . وجددت ستة أعمدة صغيرة في القسم العلوي من الرواق .

وفي عام ١٩٥٦ تم اصلاح الرخام المشقف والمزخرف الكائن في العضادة الشمالية من باب البريد وأكملت نواقصه . وتم تجديد نوازل المطرية في القسم الغربي عوضاً عن السيالات الفخارية البالية . وتم تكليس واجهة باب البريد الخارجية . وتم تكحيل القسم الحجري بالاسمنت ، وتم تطبيق جفت الحرم جهة الصحن مع صب بيتون مسلح ودهان زياتي للجفت المذكور مع متابعة تصليح الفسيفساء العاطل .

وفي عام ١٩٥٧ فك الرخام المزخرف المشرف على السقوط والمشوه في جدران مدخل باب النوفرة الداخلية ، وأعيد بصورة منسقة بعد ابعاد العاطل منه والاستعاضة بالرخام المجدد ، وتم فتح الباب الذي وجد مخفياً تحت الرخام القديم وهو باب صغير لجهة مقام الحسين . وتم تجديد البابين الجانبيين لمدخل باب البريد من خشب مجدد ، وأعيدت الزخارف النحاسية والنقوش الاثرية وأكملت النواقص مجدداً . وتم اصلاح وترميم السلالم الحجرية في المناور الثلاثة . وفكت الآيات القرآنية المنقوشة في الحجر في جدار الرواق الغربي وأعيد تركيبها وأكملت نواقصها مع المحافظة على وضعها الاثري . وأصلحت قبة (الخزنة) الغربية مع تكحيلها بالاسمنت وتزريقها بالكلس والمونة وصبت ألواح رصاصية مجددة لسطوحها الخارجية .

وفي عام ١٩٥٨ تم متابعة اصلاح الفسيفساء العاطل في أقواس الرواق الغربي، وتم اصلاح الباب الخشبي الاثري الكبير في مدخل باب البريد ، وبعد حـــذف العاطل منه من (خشب أو نحاس) أعيد كما كان في السابق حيث أعيدت اليه الزخارف والنقوش والخيوط النحاسية ، وتم اصـلاح مدخـل الكلاسة ، وتم نصب السقايل في مدخل باب البريد وبوشر باصـــلاح الدهان الزياتي العربي المزخرف في سقف المدخل حيث قد عفى عليه الزمن وغطي بطبقة كثيفة أحالت لونه حتى أصبح مكمداً من جراء رشح مياه الامطار وتم متابعـــة فك أقسام الفسيفساء الآيل للسقوط في منطقة باب البريد القسم العلوي وأعادتهـا بعد اكمال نواقصها كما كانت . وتم اصلاح خشب سقف منطقة مدخل باب البريد ، وجدد صب رصاص السطح ، وصبت مجاري مسلحة من اسمنت ، وعملت زريقـــة داخلية لسقف المدخل (زلحفة) سلحفاة لمنع دلف المياه نهائياً وقد أبدل العمودان الصغيران في القسم العلوي في مدخل باب البريد .

وفي عام ١٩٥٩ متابعة في الدهان الزياتي لسقف باب البريد ، ومتابعـة في اصلاح وترميم واكمال فسيفساء المكان المذكور الآيل للسقوط .

وأثناء سير العمل نفـدت قطع الفسيفساء المتوفرة في الاموي والمجموعة في المستودع من بقايا القطع المتساقطة قديماً من الجدران . وكادت أن تتوقف أعمال اصلاح الفسيفساء من جراء فقدان القطع (خرزات) ورغم التحري في المدينة عن امكانية صنعه حديثاً ومخابرة الدول الغربية عن طريق مديرية الآثار لم تفلح المساعي ولم تؤد الى نتيجة مفيدة . فصممت مديرية الاوقاف انتاجه محلياً بواسطة خبراء محليين ، وبعد جهود كبيرة تم انشاء معمل زجاجي صغير ، وأنشئت ورشة فنية تمكنت من انتاج فسيفساء مجدد مماثل للقديم (البـــلور فقط) ولا تزال المساعي مستمرة لانتاج فسيفساء من البلور المطلي بالذهب والفضة ، هـذا وان قطع الفسيفساء هي عبارة عن قطع بلورية خاصة الصنع ومختلفة الالوان وقطع

بلورية أخرى مطلية بالذهب والفضة وقطع رخامية ملونة ، ولا يتجاوز قيـاس القطعة أي الخرزة ١ × ١ سم . وان المساعي التي تبذل لانتـــاج جميع أنواع الفسيفساء تبشر بالنجاح قريباً .

ومن الاعمال التي هي قيد العمل الآن توضيب وتحضير قواعد وأعمدة قبـــة التوقيت لاعادتها لشكلها الاثري القديم وازالة الغـــلاف الحجري التركي الذي أنشىء حولهـا .

وختاماً : يتضح من موجز الاعمال الجارية بان الجامع الاموي كان بحـاجة لاصلاحات ضرورية جداً . خصوصاً في القسم الشمالي منـــه ، أي في الصحن والأروقة والمشاهد . وقد أزيل العطل والخطر من كافـة الجهـات المتصدعة ، وبقي اجراء الاعمال المتممة والتي لم تعد تتعلق في متانة البناء ، وأهمها اصـــلاح الفسيفساء في كافة أنحاء الجامع وأكثرهـا ضرورة الموجود في باب السنجق ، واصلاح محاريب الحرم ، حيث تضررت من الرطوبة . والسدة ودهانها الزياتي العجمي . وتبليط أرض الصحن والأروقة وخلافهـا من الاعمال التكميلية كالزخارف الرخامية والخشبية والجصية .

وتقدر تكاليف هذه الاعمال بمبلغ مليون ونصف المليون ليرة سورية هذا عدا عن تكاليف مشروع تحرير حول الاموي الذي هو قيد الدراسة لدى أمانة العـاصمة .

مكين المؤيد

خاتمة

تبين أن حرائق الاموي كلها (إلا الأخير منها) إنما امتدت اليه من البيوت الملاصقة له ، التي تستر جماله ، وتخفي عظمته ، وتشوه منظره ، وتعرضه للخطر « مع أنه لا يتصل به الآن من جهة الحرم إلا دكاكين واطية من الخشب واللبن ، لا تكلف إزالتها إلا القليل ،هي دكاكين الحذائين في السوق الضيق[١] ودكاكين (القباقبية) التي توقد فيها النار طول النهار ، فاذا أزيلت انكشف سور الحرم كله ، وظهر الباب القبلي القديم . وهذا الاقتراح الاول .

الثاني — ان لكل باب من الابواب دهليزاً ، وأكبرها ما كان من جهة النوفرة ، وقد كشف من سنين بالمصادفة ان درج النوفرة لم يُبْنَ على أرض حرة ، بل ان تحته قاعة واسعة ، فلو حول الطريق بعد إزالة دكاكين القباقبية ، حتى امتد موازيا للجدار القبلي ، وأزيلت أدراج النوفرة ، وأظهرت هذه القاعة ، وجعل لها باب ليزورها السياح والناس ، لكان منها منفعة للدارس ومورد للدولة .

ولقد كان من الشائع ان تحت الاموي معبداً للصابئة ، ذكر ذلك ابن تيمية في بعض كتبه ، والصابئة قد تطلق على طوائف من الوثنين كأصحاب المعبد الأول ، فاذا امتد الحفر من تحت الدرج ، ظهر المعبد ، كما ظهر بالمصادفة ، من سنين ، ان تحت جامع بيروت جامعاً آخر وان تحت كل عمود عموداً آخر .

الثالث — وهذا طلب بعيد الاجابة ، هو ان دمشق أقدم المدن المسكونة

---

(١) كلمة السوق مؤنثة ويجوز تذكيرها والدرج جمع درجة فهي مؤنثة ولكني اتبعت الاستعمال الشائع .

اليوم على ظهر الارض ، لا خلاف في هذا، وكلما حفر في أرضها للبناء أو للمجاري ظهرت آثار مطمورة ، من أحدث ما ظهر منها الاعمدة التي كشف عنها في طريق الباب الشرقي ، وأخطأت دائرة الآثار فرفعتها فجعلتها فوق الارض ، مع ان الواجب تركها على العمق الذي ظهرت فيه ليتبين ما طرأ على أرض المدينة من ارتفاع .

واذا كانت الحفريات قد أظهرت في مدينة بابل ثلاث مدن بعضها فوق بعض (رأيت ذلك بعيني) فان دمشق ان اقتطعت منطقة منها كالمنطقة التي بين نهاية ما فتح من شارع معاوية والباب الشرقي والسور الجنوبي وأخليت وأجريت فيها حفريات لظهرت ست مدن بعضها فوق بعض ، ولتغيرت دراسة التاريخ القديم ، ولكان من ذلك أعظم منطقة أثرية في العالم ، وكان لنا منه مورد مالي لا ينقطع ، ولوجدنا تحفاً وكنوزاً لا تقدر قيمتها .

وليبدأ الحفر من الخراب ، ومعلوم ان هذه البقعة سميت بـ (الخراب) لأنها تخربت على عهد تيمورلنك لا جزاه الله خيراً ، وانها تظهر صحون الدور القديمة وبركها ، بأقل حفر يكون فيها .

وتحت ذلك طبقات اسلامية ، ثم طبقة رومانيه ، ثم طبقات الله أعلم بها .

والرابعة — **ان** يفتح من باب الاموي ، شارع مستقيم الى ظاهر البلد ، وأقرب وسيلة الى ذلك ، هي شق الطريق من باب العمارة الى شارع بغداد وأكثره مفتوح والبيوت الباقية في طريقه من البيوت الرخيصة ، وفي فتحه نفع لتلك الاحياء ، وما يؤخذ من المالكين من (رسم الشرفية) يقوم بنفقات الفتح ويعطى أرباب البيوت المهدومة بدلاً منها في المساكن الشعبية ، كما كان عند شارع البحصة .

وأنا أشكر الاستاذ عبد الرحمن الطباع الأمين العـام لوزارة الاوقاف الذي أشار بتأليف هذا الكتاب ولولاه ما خرج للناس .

وأشكر الاستاذين عبد القادر العاني وحمدي الحلبي على ما أمداني به من أخبار المسجد في عهده الاخير التي لم يدونها التاريخ .

وأشكر كل من يتفضل فيدلني على نقص فيه أو يرشدني الى خطأ لاسيما في الارقام التي لا آمن عليها التحريف عند الطبع .

والحمد لله من قبل ومن بعد .



حاشية : وقف الدكتور صلاح الدين المنجد على (ضبط التحقيق) في حريق الاموي سنة ٧٤٠ محفوظ في جامعة لندن ، قدم لها مقدمة قيمة ونشرها في مجلة المجمع العلمي الجزء (١) المجلد (٣١) ثم أفردها برسالة على حدة يتبين منها أن الذي أحرقه راهبان أفرنجيان تنكرا وجاءا معهما بمواد محرقة وضعاهـا في الدكاكين المحيطة بالجامع وأعانهما نفر من نصارى الشام ، فليطلع عليهـا من شاء الوقوف على أسرارها .

آثار المؤلف

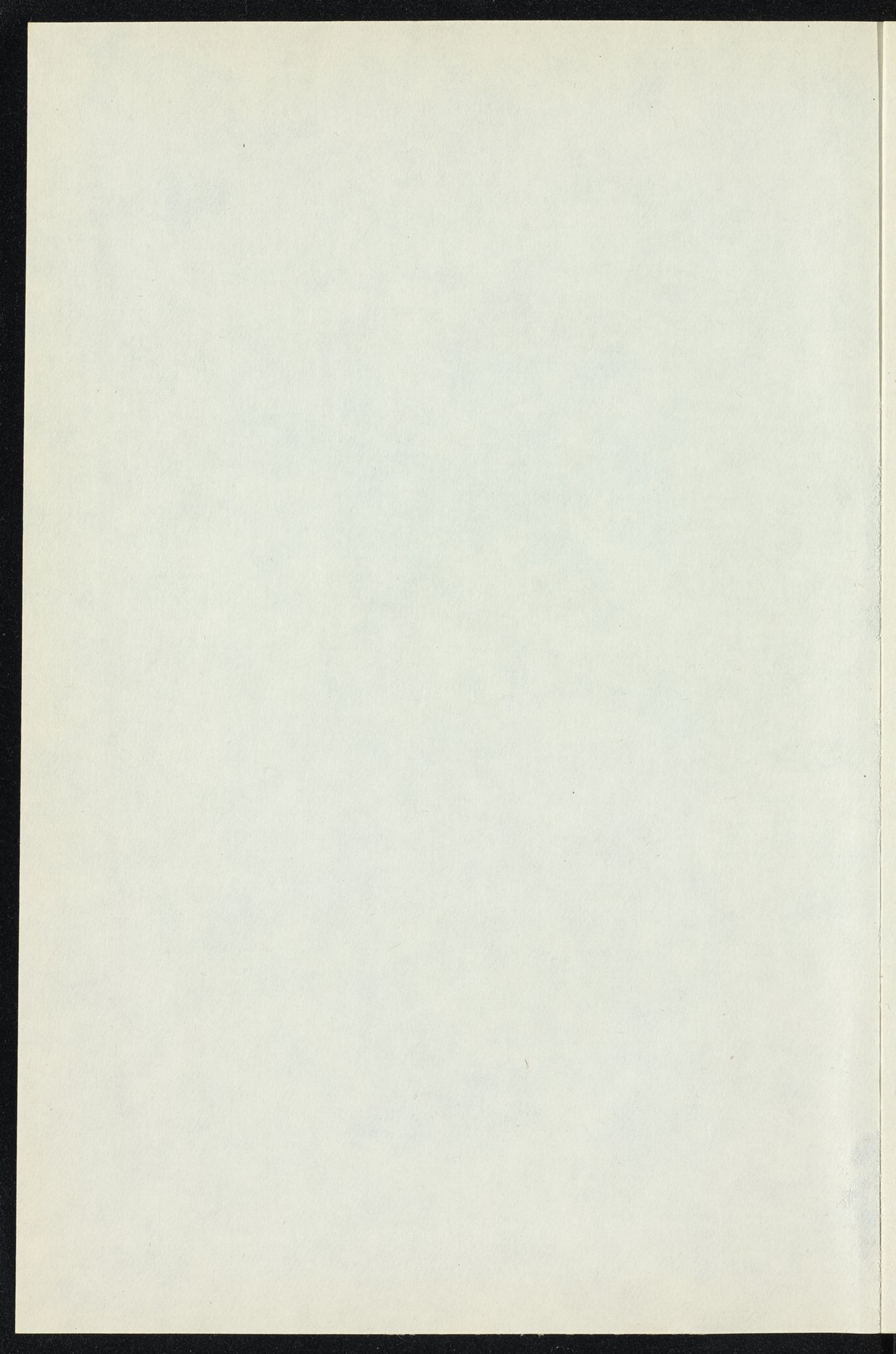
كتب نفدت

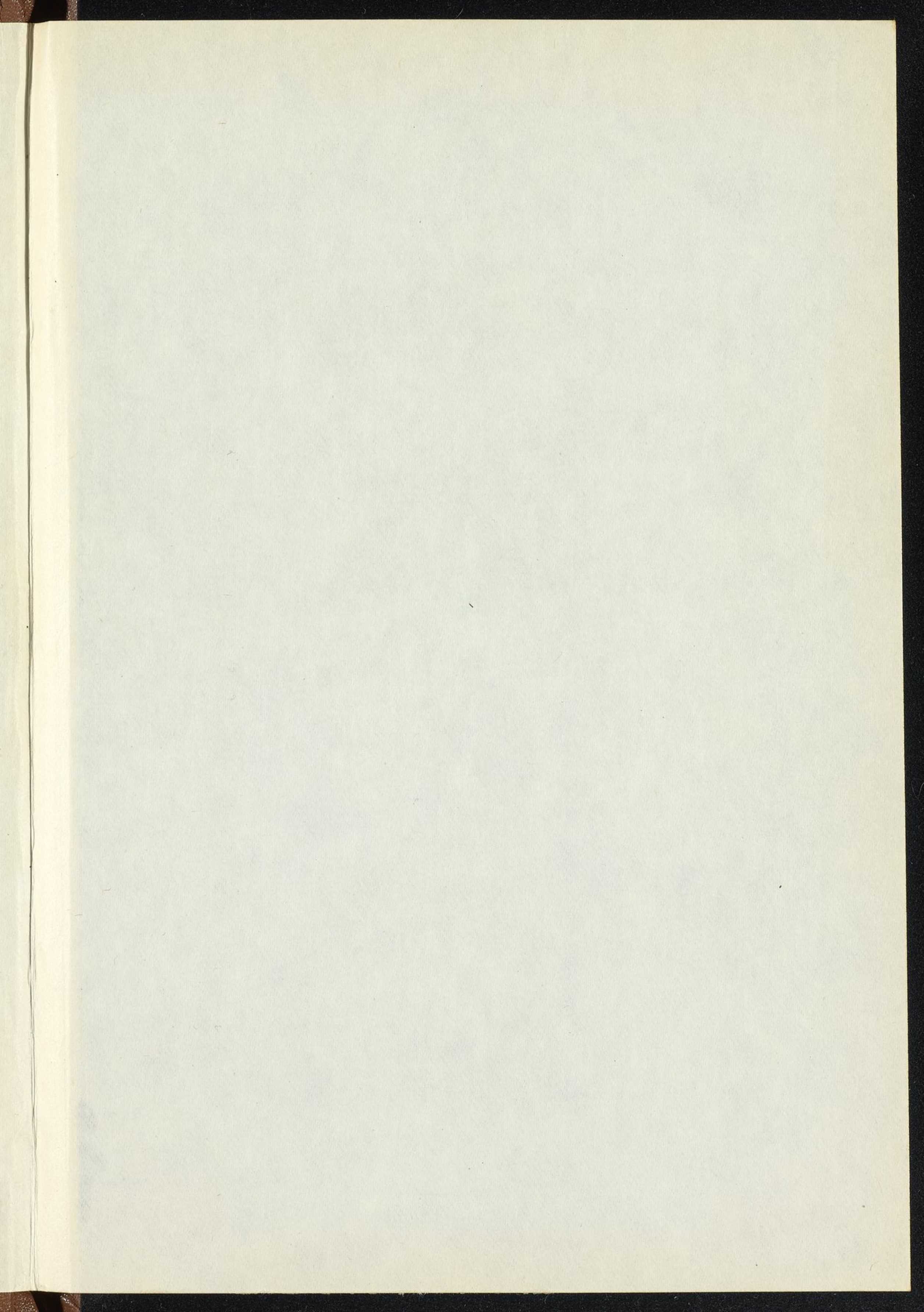
١- رسائل الاصلاح ١٣٤٨ هـ
٢- بشار بن برد ١٣٤٨ هـ
٣- رسائل سيف الاسلام ١٣٤٩ هـ
٤- الهيثميات ١٣٤٩ هـ
٥- في التحليل الادبي ١٣٥٣ هـ
٦- عمر بن الخطاب جزآن ١٣٥٢ هـ
٧- كتاب المحفوظات ١٣٥٥ هـ
٨- في بلاد العرب ١٩٣٩ م
٩- من التاريخ الاسلامي ١٩٣٩ م

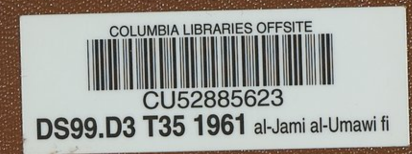
كتب صدرت حديثاً

١- أبو بكر الصديق (طبعة ٢) ١٣٧٢ هـ
٢- قصص من التاريخ ١٩٥٧ م
٣- رجال من التاريخ ١٩٥٨ م
٤- صور وخواطر ١٩٥٨ م
٥- قصص من الحياة ١٩٥٩ م
٦- في سبيل الاصلاح ١٩٥٩ م
٧- دمشق ١٩٥٩ م
٨- أخبار عمر ١٩٥٩ م
٩- مقالات في كلمات ١٩٥٩ م
١٠- من نفحات الحرم ١٩٦٠ م
١١- سلسلة حكايات من التاريخ ١٩٦٠ م
١٢- هتاف المجد ١٩٦٠ م
١٣- من حديث النفس ١٩٦٠ م
١٤- الجامع الاموي ١٩٦٠ م
١٥- في اندنيسيا ١٩٦٠ م
١٦- فصول اسلامية ١٩٦٠ م
١٧- صيد الخاطر لابن الجوزي (تحقيق وتعليق) ١٩٦٠ م
١٨- فكر ومباحث ١٩٦٠ م
١٩- مع الناس ١٩٦٠ م
٢٠- بغداد ١٩٦٠ م
٢١- أعلام التاريخ ١٩٦١ م

عبد الرحمن بن عوف . شريك . ابن المبارك . النووي . أحمد بن عرفان






COLUMBIA LIBRARIES OFFSITE
CU52885623
DS99.D3 T35 1961 al-Jami al-Umawi fi